

مكتبة الأسرة



مهرجان القراءة للجميع

سيد خميس

القصص الديني

بين التراث والتاريخ



الأعمال الخاصة



الهيئة المصرية
للعناية بالكتاب

**القصص الديني
بين التراث والتاريخ**

القصص الديني بين التراث والتاريخ

سيد خميس

على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب في المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها في تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكنا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليتها مكتبة الأسرة، السيدة سوزان مبارك التي لم تبخل بوقت أو جهد في سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها .. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً وبسر في تناول الجميع ليصبح نهمة للمعرفة دون عناء مادي وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع في صدارة البيت المصري بثناء إصداراتها المعرفية المتنوعة في مختلف فروع المعرفة الإنسانية .. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادي أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة مصر القديمة، للعالم الأثري الكبير سليم حسن (١٨ جزء) . وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» في (٢٠ جزء) .. مع السلاسل المعتمدة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب في البيت المصري تنهل منه الأسرة المصرية زائداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً في عصر المعلومات.

د. سمير هرجان



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك
(الأعمال الفكرية)

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة الإدارة المحلية
وزارة الشباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

القصص الدبلى بين التراث والتاريخ

سيد خميس

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان : محمود الهندي

المشرف العام :

د. سمير سرحان

طبعة خاصة من ميريت للنشر والمعلومات لمكتبة الأسرة ٢٠٠١

(١)

العودة للتراث.. لماذا؟

عرف العرب منذ القدم مفهوم "التراث" بجانيبه، أو وجهيه:
المادى والروحي. واستخدموا كلمة الإرث والميراث فيما
يتصل بالجانب الثقافى والروحي.

وإن كان القرآن الكريم قد استخدم كلمة التراث فى الإشارة
إلى ما تركه السلف للخلف من موروث مادى أو معنوى.. مثل
قوله تعالى: "وتأكلون التراث أكلا لما" ومثل قوله تعالى على
لسان النبى زكريا: "هب لى من لدنك وليا يرثى ويرث من
أل يعقوب" ويفسر لسان العرب الآية بأن النبى زكريا أراد أن
يهب له الله من يرثه، ويرث النبوة من آل يعقوب. ويقول النبى
عليه الصلاة والسلام: "نحن معشر الأنبياء لا نورث، ما
تركناه فهو صدقة". ويروى أن أبا هريرة قال لبعض
الصحابة: انتم هنا وميراث محمد يوزع فى المسجد، ولم يكن
فى المسجد إلا جماعة تقرأ القرآن وتذكر الله، فكأنه أراد من
هؤلاء الصحابة المشاركة فى الميراث الذى أوحى إلى النبى.
ويستخدم الشاعر الجاهلى عمرو بن كلثوم كلمة التراث
بذلاتها المعنوية فى معلقته الشهيرة، مشيراً إلى وراثة المجد
والمفاخر والمناقب العظيمة التى يعز بها العرب، يقول:
ورثنا مجد علقمة بن سيف أبا ح لنا حصون المجد دينا
ورثت مهلهلا والخير منه زهير نعم ذخى الذلخيرينا

وعتبا وكلتوما جميعا بهم نلنا تراث الأكرمين
ويرى الدكتور أكرم العمري في كتابه "التراث والمعاصرة"
أن التراث الإسلامي هو كل ما ورثناه عن آبائنا من عقيدة
وتقافة وقيم وأداب وفنون وصناعات، وسائر المنجزات
الأخرى المعنوية والمادية، بما فيها الوحي الإلهي (القرآن
والسنة) الذي ورثناه عن أسلافنا.. ولكنه يميز التعامل مع
الوحي الإلهي عن التعامل مع باقي مفردات التراث الأخرى،
في عدم قبول الوحي الإلهي للانتقاء أو الاختيار، أو التطويع
للواقع، وطرائق التفكير، لتوظيفه في تحقيق مصالح عامة أو
خاصة، فالوحي الإلهي إطار يحكم الحياة، ولكنه يدعها تتطور
داخله، فإذا انفلتت خارجه فقد وقع انحراف لابد من تقيمه
() وأما المنجزات البشرية الحضارية والثقافية فإنها قابلة
للاختيار والتوظيف، وفق الرؤية المعاصرة وحسب الحالة
والمصلحة".

والتراث العربي أوسع زمنياً من التراث الإسلامي، فهو
يضرب بجذوره إلى تراث الحضارات القديمة في منطقة
الشرق الأدنى، وإلى تراث العرب قبل الإسلام بقرون طويلة.
ولكن التراث الإسلامي أعمق وأغنى وأوسع جغرافياً من
التراث العربي، فهو يضم إلى جانب تراث العرب تراث
الشعوب الأخرى التي دخلت الإسلام كالفرس والهنود والمغول
والمصريين والعراقيين وشعوب شمال أفريقيا إلخ. ويقدم
محقق التراث الكبير العلامة عبد السلام هارون في كتابه الذي
يحمل هذا الاسم: مفهوما مستثيرا للتراث العربي، يجعله رديفاً

للتراث الإنساني، فهو "كل ما كتب باللغة العربية، وانتزع من روحها وتيارها فترا بصرف النظر عن جنس كاتبه، أو دينه، أو مذهبه".

وقد شغل التراث العربي الإسلامي مساحة واسعة من التاريخ الإنساني، متفاعلا معه أخذا وعطاء خلال قرون الازدهار الحضاري العربي الخمسة، وما زالت هذه التأثيرات تطل علينا عبر الإبداع الأدبي والفكري حتى الآن.. ويمتد التراث العربي.. مثل غيره من تراث الشعوب الأخرى من الأسطورة إلى الحكاية والسيرة وباقى مكونات التراث الشعبي، ومن التراث الشعبي إلى التراث الخاص والمدون، وفي مقدمته المادة التاريخية والثقافية.

والعلاقة بين الدين والتاريخ والتراث علاقة قديمة متجددة حسب مقتضيات تطور المكان والزمان. ففي العصور القديمة كان تاريخ الأنبياء والرسل هو الوجه الآخر للتاريخ الإنساني، بينما تاريخ الملوك والحكام هو وجهه المادي، أو تاريخ العمران الاجتماعي حسب تعبير العلامة ابن خلدون، وعندما انفصل التاريخ كعلم عن الدين والتراث عاد ثانية للاهتمام بالدين والتراث من خلال مناهجه الحديثة، في دراسة تاريخ الأديان، والتاريخ الثقافي للبشر، بينما اتجهت بعض العلوم الإنسانية التي نشأت وتطورت في القرنين الماضيين، كالأنثروبولوجيا، والفولكلور، واللسانيات، والنقد الأدبي، لقراءة التراث الإنساني قراءة جديدة من خلال مناهجها، لتغلي معرفة الإنسان بذاته، وبتاريخه الوجداني، وبمحيطه

الاجتماعي، وبجماعته الإنسانية. والفرد الأدب، وخاصة في
العصور الحديثة، بالنظر إلى التراث الديني والأدبي
كمصدرين غنيين للإبداع الفني. فكان الحياة المعاصرة، وما
يكتنفها من عقبات مادية وعذابات روحية، تعيد للإنسان صلته
بالدين يستمد منه طاقة لمواجهة تحديات الواقع والعصر، التي
لا تأبه كثيرا بمصائر الجماعات المستضعفة، والإنسان
العادي، كما أعادت صلة هذا الإنسان بتراثه في مواجهة
عوامل اقتلعه من هويته، ليس لمجرد الاحتفاء السلبى بهذا
التراث كحل هزوى من احباطات الواقع، ولكن للتفتيش في
هذا التراث الفني، عن حلول خاصة به وبأمنته، منطلقا من
إيمان حقيقي بأنه يملك تراثا لو نفض عنه تراكمات عصور
التدهور والتحجر والجمود، لوجد فيه كنوزا عظيمة قادرة على
إمداده بإجابات مبتكرة على أسئلة الواقع والعصر.



(٢)

القصص الديني
والموروث التاريخي

كان الكثير من القصص الديني معروفا عند العرب قبل الإسلام، فقد كان هذا القصص أحد مكونات التاريخ الشفاهي العربي، وكانت قصص عاد وثمود وفرعون تنتقل بينهم بالتواتر كما يقول الفخر الرازي، كما كان الشعر، وهو أصبح علم لدى العرب القدامى، كما وصفه عمر بن الخطاب، يحمل الكثير من الإشارات التاريخية والقصصية، وقد انتقل هذا القصص الديني السابق على الإسلام إلى العرب، طريق نصارى الشام والحبشة ويهود اليمن وجران والمدينة، كما انتقل عبر بعض المنقفين من أبنائهم الذين عرفوا الكتاب، وبعض اللغات المجاورة كالعبرية والفارسية، والذين كانت نفوسهم تضيق بالعقائد الوثنية.

ولكن هذا القصص الديني لم يزدهر وينمو وينضج إلا في ظلال القرآن الكريم، رغم أن القرآن ليس كتاب قصص، وإن شغلت مساحة القصص الديني فيه ما يتجاوز ربع المصحف بقليل، وذلك بالمعنى الواسع لمفهوم القصص، مما يؤكد أن القرآن استخدم القصص كوسيلة من وسائل إبلاغ الدعوة، أو بعبارة أخرى قام بتوظيف القصص توظيفاً دينياً يتفق وغاياته السامية، شأنه في ذلك شأن سائر الكتب السماوية المقدسة، فامتلاً بالموروث القصصي الدائع عند العرب، بشروطه

الموضوعية والجمالية، على شكل وحدات سردية جزئية
موزعة على عدة سور من سور القرآن الكريم، باستثناء قصة
يوسف، التي جاءت بميناها الحكائي كاملاً في سورة يوسف
[د. محمد رجب النجار - التراث القصصي في الأدب
العربي].

ويشمل القصص الديني الذي أشار إليه القرآن الكريم أربعة
أنواع من القصص: قصص الأنبياء، وتبدأ بقصة أبي البشر
آدم وأسهم حواء وخروجهما من الجنة، ثم أبي البشر الثاني
نوح، وقصة الطوفان العظيم، ثم قصص النبيين العربيين، هود
وصالح مع قومهما، ثم قصة أبي الأنبياء إبراهيم مع النمرود
وقصة أبي العرب إسماعيل وقذائه، وحفر زمزم، وبناء
الكعبة، وقصة لوط مع قومه ويعقوب مع أبنائه، وقصة يوسف
مع أخوته وعلاقته بالمرأة العزيز وسجنه، والنبى شعيب ثم
قصة موسى ومعجزة ميلاده، وخروجه بقومه من مصر، ثم
دعوته، وصراعه مع فرعون، والنتيـة اليهودي، وقصة البقرة،
وقصة فتنة داود مع أصحاب السبت، وسليمان وبلقيس، وأيوب
وبلائه، ويونس والحوت، وزكريا ويحيى، ثم مريم وعيسى
والمعجزات العيسوية.

ويلى قصص الأنبياء في القرآن الكريم، القصص المتعلقة
بالشعوب السابقة على الإسلام والتي ترد للعبرة التاريخية
المستهدفة منها، مثل: قصة أهل الكهف، قصة ذي القرنين،
قصة يأجوج ومأجوج، قصة عزيز وأصحاب الجنة، قصة
قارون وكنوزه، قصة قابيل وهابيل، وقصص سد مأرب،

وسبل العرم، وأصحاب الرس، وأصحاب الأخدود وأصحاب
الفيل إلى غير ذلك مما يرتبط أشد الارتباط بالثواب والعقاب
السمائيين، والجنة والنار، والموت والبعث، ويرتبط بهذا
المجال التاريخي، الوقائع والأحداث التي حدثت للرسول صلى
الله عليه وسلم نفسه مع بداية اضطهاد قريش له وتكذيب
دعوته وحصلاره، وتحديات اليهود له، وقصص المنافقين معه،
ومروا بقصة الإسراء والمعراج، وقصة الهجرة النبوية وما
ارتبط بها من معجزات، وقصة الإفك، والحروب التي فرضت
على النبي أو الغزوات التي قام بها، وانتهاء بفتح مكة وتمام
النصر، وتعميماً على الحديث عن زوجات النبي، خاصة
زينب بنت جحش، وغير ذلك من مواقف وأحداث، وما يرتبط
بهذا كله من لمحات رسولية، ومواقف إنسانية، ومعجزات
إلهية، وكثير منها يشكل معالم فاصلة في تاريخ البشرية.
والغالب على القصص الديني القرآني، هو قصص الأنبياء
وتاريخ نضالهم مع قوى الإنكار والشر، وليس الهدف من هذه
القصص هو السرد التاريخي، ولكن الهدف هو التأمل والعظة
والمغزى الديني، لذلك جاءت صياغة هذا الموروث التاريخي
في القرآن الكريم صياغة قصصية، في زمن لم يكن القصص
فيه قد انفصل عن التاريخ، وكذلك جاء السرد بلاغياً فنياً.
والنوع الثالث من القصص القرآني، هو القصص الغيبي،
القصص المتعلقة بعالم الجن، وعالم الملائكة، وعالم الشياطين
والسحرة، لذلك استوعبت كتب التفسير عند تعرضها لهذا
النوع من القصص الموروث العربي القديم من الحكايات

والأساطير، كما استوعبت الموروث السامي، والذي عرف
بـ"الإسرائيليات".

وهناك نوع رابع من القصص القرآني، هو الذي يسميه
الدكتور النجار بالقصص الرمزي والتمثيلي، وهو القصص
المتعلق بعالم الحيوان، أو الذي يروى على لسان الحيوان،
كقصة الغراب الذي بعثه الله لابن آدم لكي يعلمه كيف يوارى
سواة أخيه، وقصة الطير التي ذبحها إبراهيم الخليل ووزع
أجزاءها على قمم الجبال ثم استدعاها فجاءت تسمى، وقصة
بقرة بني إسرائيل التي أمر موسى بذبحها لكشف جريمة القتل،
وقصة الذئب الذي اتهم زورا بأكل يوسف، وهدد سليمان،
ودابة الأرض التي كشفت لنا أن الجن لا يعلم الغيب، وحمار
عزيز الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه.. إلخ.
وثمة سور قرآنية تحمل أسماء حيوانات مثل: النحل، النمل،
البقرة، العنكبوت، الفيل، ورغم وفرة المادة القصصية في
القرآن الكريم، إلا أنها وردت كما اسلفنا كإشارات مجملة،
أو لمحات سرديّة. ولم تتحول إلى قصص ديني كامل إلا على
يد المفسرين ورواة الأخبار والمؤرخين القدامى، لتصبح
قصصا دينيا بشريا منفصلا عن القصص القرآني وإن استلهمه
في البداية ليبني عليه إبداعه القصصي.



العرب وديانات ما قبل الإسلام

كانت الكعبة هي أقدس ما في بلاد العرب قبل الإسلام، وكان بعض العرب قد عرف الديانتين الكبيرتين: اليهودية والمسيحية، التي كانوا يسمون أتباعها بـ "أهل الكتاب".. وكانت قريش تعرف "الله" الذي يعبده اليهود والنصارى: "ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله" ولكنهم استمروا في عبادة الهة أخرى، مثلما كان العبرانيون القدماء يفعلون.. كانوا يتوجهون إلى أصنامهم الكبرى في فترات الرخاء والازدهار، حتى إذا ما حلت بهم أزمة خانقة توجهوا ببطرتهم إلى الله القادر وحده على إزاحة الأخطار عنهم، ويضرب القرآن الكريم مثلاً بمن كانوا في القلق وخشوا الغرق، فدعوا الله حتى إذا نجاهم نسوه وتوجهوا إلى الهتهم.

ولكن بعض متقني العرب قبل الإسلام مباشرة كان بهم
رغبة أكيدة في تجاوز ذلك الموقف المزدوج في عبادة الله
الذي يعبد النصارى واليهود من العرب الجنوبيين، والعرب
الملحقين بالقوتين المهيمنتين الكبيرين في ذلك العصر
وعلى الفرس والرومان، وبين عبادتهم ألهمهم القديمة: اللات،
والعزى، ومناة، وهبل.. وكان بعض النصارى واليهود
يقومون بالحج إلى البيت الحرام مع باقى قومهم من الوثنيين..
لقد أراد هذا البعض المستنير من العرب القدامى ديناً خاصاً
بهم، لا يرتبط باليهودية التي ترعاها فارس، ولا بالمسيحية
التي ترعاها روما، والتي تسيطر على مصائر الشعوب
الأخرى عن طريقهما.. ويخبرنا المؤرخ الفلسطينى المسيحى
"سوزومينوس" الذى عاش فى القرن الخامس الميلادى، أن
بعض العرب كانوا يحاولون التعبد حسب دين الخليل إبراهيم
الذى اكتشفوه "وان شئنا الدقة العلمية، فإن إبراهيم لم يكن
يهودياً ولا مسيحياً، إذ كان يعيش فى وقت سابق على التوراة
التي أتى بها موسى إلى بنى إسرائيل".

كما تورد سيرة ابن هشام قصة الرجال القرشيين الأربعة
قبل الإسلام الذين خرجوا يبحثون عن دين صحيح لا يقوم
على عبادة الأصنام، وعقدوا فيما بينهم حلفاً سرياً، وانتهوا
بأبى قريش بأنهم افسدوا دين أبىهم إبراهيم، وبأن الحجر الذى
يطوفون حوله، لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع،
وقالوا: "فلتبحثوا لكم عن دين، فليس لكم والله من دين تدبنون
به، ومن ثم جعلوا يضربون فى الأرض سعياً وراء الحقيقة

دين إبراهيم عليه السلام".

وكان الحنفاء الثلاثة هم: عبيد الله بن جحش ابن عم النبي، وقد اعتنق الإسلام ثم تحول إلى النصرانية، وكان الثاني ورقة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة زوجة النبي الأولى، والثالث هو عثمان بن الحويرث، وكان من الشخصيات البارزة في مكة فترة شباب النبي وقد اعتنق النصرانية، وحاول إقناع أهل مكة بأن يجعلوه ملكا عليهم، ووعدهم بتحقيق شروط تجارية أفضل لهم مع البيزنطيين، الذين كانوا يطمحون في تحويل مكة لأهميتها التجارية إلى دولة تابعة لهم، ورفض المكيون العرض فقد كانوا يكرهون أن يتخذوا ملكا عليهم أما رابع هذه المجموعة فهو زيد بن عمرو، الذي لم يكثف بالخروج على عبادة آلهة قريش، بل راح ينتقد هذه الآلهة علنا، وكان أخوه غير الشقيق الخطاب بن نفيل (والد أمير المؤمنين عمر) من المخلصين لعبادة الأوثان، ومن أشد حراس التراث القديم قوة وحسما، وكان ابنه عمر يشاركه هذا الموقف، فهم يرون أن عبادة الكعبة عاملا مهما في وحدة قريش، لذلك ساء الخطاب ما يقوله ويفعله أخوه زيد، وأغضبه ارتداده عن دين آبائه، فطرده من مكة، "وقيل أنه شكل فريقا من شباب المتحمسين لعبادة الأوثان، وجعلهم رقباء على التلال المحيطة بمكة حيث كان زيد يختلي، ليمنعوه من دخول الكعبة، وهكذا ترك زيد الحجاز ورحل إلى البلاد المتحضرة سعيا وراء الدين الصحيح، وبلغ الموصل في العراق، ثم ارتحل إلى سوريا، وهو يسأل كل راهب أو حاخام يصادفه عن الدين النقي الذي جاء به إبراهيم وأخيرا قابل راهبا أخبره

أن الوقت قد حان لظهور نبي في مكة يبشر بالدين الذي يبحث عنه. وهكذا عاد زيد أدراجه، ولكنه تعرض لحادث اعتداء عند الحدود الجنوبية لسوريا، ولفظ أنفاسه الأخيرة قبل أن يقدر له أن يقابل محمدا.

ولكن ابنه سعيدا أصبح من أخلص صحابة النبي، وكان زيد قبل أن يرغمه أخوه علي ترك مكة، يقف إلى جوار الكعبة ثم يصبح في قريش أثناء طوافها حولها. "يا معشر قريش، والذي نفس زيد بيده، ليس فيكم من يتبع دين إبراهيم سوى" ثم يضيف داعيا ربه: "إلهي ! لو أنني أعرف كيف تريدني أن أعبدك لعبدتك العباد التي ترضاهم، ولكني أجهلها".

لم يعد النظام القبلي والوثنية القديمة المرتبطان بحياة الترحل السابقة صالحين لحياة الاستقرار وشبه التحضّر اللذين عرفتهما مكة، منذ أن استقرت قريش فيها في أواخر القرن الخامس الميلادي، كان بعض العرب قد بدأوا التعامل التجاري مع الدول المتحضرة المجاورة، ولعل قصة النضر بن الحارث ابن خالة النبي، والذي كاد للنبي وللمسلمين الأوائل كيدا شديدا، جعله يستحق القتل، بعد أسره في معركة بدر، لعل هذه

القصة تكشف عن هذا اللون من الثقافة الذي عرفه بعض وجوه مكة قبل الإسلام، فقد كان النضر يقصصه وما يحفظه من أشعار الأمم الأخرى، وما يعرفه من موسيقاهم يسلب أبواب أهل مكة.. وكان يعد نفسه نظيرا ونادا للنبي عليه

الصلاة والسلام، كان يقول: "إذا كان محمد يحدثكم بأحاديث عاد وشؤد، فأتنا أحدثكم بأحاديث رستم واسفنديار، وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة، فهلما أحدثكم أحسن من حديثه"

وهو الذى نزلت فيه الآيات القرآنية الكريمة "ومن الناس من
يشترى لهو الحديث، ليضل عن سبيل الله بغير علم، ويتخذها
هزوا أولئك لهم عذاب مهين.. وإذا تتلى عليه آياتنا ولى
مستكبرا، كان لم يسمعها، كان فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب
آليم".



أنبياء العرب القدامى

أنكر يهود المدينة نبوة هود في قوم عاد، ونبوة صالح في قوم ثمود، وعاد وثمود من القبائل العربية القديمة، لأن التوراة لم تورد اسمى هود وصالح ولا قومهما، وقد صار جنل بشأنهما بين الرسول عليه السلام وبين اليهود.. ويذكر ابن الأثير في تاريخه أن شهرة النبيين: هود وصالح عند العرب قبل الإسلام كشهرة إبراهيم الخليل عليه السلام، وإن إنكار اليهود لهما ولقومهما ليس بأعجب من إنكارهم نبوة إبراهيم الخليل ونبوة المسيح عليهما السلام. ويفسر ابن خلدون عدم ذكر عاد وثمود في التوراة، بأن الأمم التي ورد ذكرها في التوراة هي الأمم التي عاشت في الفترة ما بين آدم وموسى عليهما السلام.

وتورد أخبار العرب القديمة اسم نبي عربي لم يرد ذكره في القرآن، واختلفت بشأنه الآراء، وهو "خالد بن سنان العبسي"

الذى يقال أنه عاش فى الفترة الزمنية الفاصلة بين فتح الإسكندر لإيران وبين قيام الدولة الساسانية، بينما تنسبه رواية أخرى إلى العصر السابق للعصر النبوى مباشرة، ويروى أن معجزته ارتبطت بظهور نار بأرض العرب افتتن بها الناس، وكانوا يعبدونها كالمجوس، فأخذ خالد عصاه، ودخل النار حتى توسطها، ففرقها بعصاه، وهو يتلو سجعا شبيها بسجع الكهان: "بدا بدأ، كل هدى مؤدى، لأدخلها وهى تلتطى، ولأخرجن منها وثيابى تئدى" وهى معجزة تذكر بمعجزة إبراهيم الخليل الذى جعل الله النار من حوله بردا وسلاما.. ويورد ابن الأثير فى تاريخه أن النبى صلى الله عليه وسلم وصف خالد بن سنان هذا بأنه "نبى ضيعه قومه" وإن ابنة خالد أنكرت النبى فأسنت به، ويشير المؤرخون القدامى إلى نبى آخر من العرب قبل الإسلام، هو "حنظلة بن صفوان" الذى أرسله الله لأصحاب الرس "البئر" بعد خالد بن سنان بمائة سنة، ويقول عنه ابن كثير أنه كان قبل موسى، كما يشير إلى العثور على قبره قرب مدينة تستر عند فتحها، ويعلق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد على قصة نبوة خالد بن سنان العيسى ومعجزته بأنها تعبير عن كراهية العرب للمجوسية ونيران الفرس، مما يمكن اعتباره تعبيراً عن الروح القومية فى مواجهة التهديد الفارسى "ولا بأس فى أن يكون خالد بن سنان هذا من كهان العرب، أن لم يكن من متبنيهم قبل العصر النبوى، وذلك أن الرواية القصصية تضيف إلى ما سبق، أنه عندما حضرته الوفاة طلب من أهله أن ينشؤوا قبره،

إذا ما ضرب القبر بعير أبتر بحافره، حتى يخبرهم بما هو كائن، ولكن قومه لم يفعلوا ذلك خوفا من أن تسبهم العرب". وقد اهتم المؤرخون العرب القدامى بأساطير وأخبار الأمم المجاورة لهم، والتي عايشوها وعرفوا ثقافتها بعد دخولها في إطار الدولة العربية الإسلامية، وتنعكس رؤية هؤلاء المؤرخين القدامى، كابن الأثير وابن خلدون وابن قتيبة، وإخوان الصفا في رسائلهم، واليعقوبي، تعكس رؤية هؤلاء لتراث الأمم الأخرى، سماحة فكرية عالية ورغبة في المعرفة والوصول إلى الحقيقة دون تعصب أو انغلاق.. فقد اهتم هؤلاء المؤرخون بما يقوله القرس عن أنبيائهم ومعتقداتهم، كما اهتموا بحكماء الروم (فلاسفة اليونان) مثل هرمس "المثلث بالنعمة" الذي يسمى في التراث الإسلامي بالنبي إدريس. أما ما يقابل النبي إدريس عند القرس فهو "بيوراسب" الذي ظهر على عهد الملك "طمهورث بن يونجهان" بمعنى "خير أهل الأرض" وتتحدث الأسطورة عن علاقة النبي بالملك، والتي تشبه علاقة أنبياء بني إسرائيل بملوكهم كمرشدين وناصحين، و"بيوراسب" هذا هو نبي الصابئة الذي تنسب إليه الأسطورة أنه كان يستخدم السحر الذي تعلمه من كلام آدم عليه السلام، وقد استفاد الملك من هذا السحر في السيطرة على إبلهس، فكان يمتطيه ويطوف عليه أقاصي الأرض، كما ينسب إلى أخى الملك المسمى بـ "جمشيد" بمعنى شعاع القمر، وقد لقب به لجماله، أنه كان يستعيد الإنس والجن ويذل الشياطين ويسخرهم في أعمال البناء والتشييد. فهو من هذا الوجه شبيه

بسلیمان الحکیم.. وعن طریق مذهب الصابئة هذا ظهرت عبادة الأصنام "لأن أصل مذهبهم" كان عبادة الملائكة لتقربهم إلى الله زلفى "فإنهم اعترفوا بصانع العالم، وأنه حكيم قادر مقدس، إلا أنهم قالوا: الواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى معرفة جلالة، وإنما نتقرب إليه بالوسائط المقربة إليه وهم الروحانيون (الملائكة) وحيث لم يعانوا الروحانيين تقربوا إليهم بالهياكل، وهى الكواكب السبعة السيارة، ولما كانت الكواكب تغيب نهاراً، ذهبت فئة من الصابئين إلى وضع الأصنام لتكون نصب أعينهم ليتوسلوا بها إلى الهياكل، والهياكل إلى الروحانيين، والروحانيين إلى صانع العالم، فهذا كان أصل وضع الأصنام أولاً (الكامل لابن الأثير نقلًا عن د. سعد زغلول عبد الحميد) ولعل ذلك سر ساحة نظرية الإسلام إلى الصابئة.

ويربط المؤرخون القدامى بين جهود البشر وكفرهم، وانصرافهم إلى الفروع دون الأصول ونسيانهم التوحيد، وبين رسالة النبي نوح كأول نبي بعث بالإنذار والدعوة للتوحيد، ومناشدة قومه في العودة إلى الحق، والامتثال لأوامر الله.. لكنه كان مكتوباً على الإنسانية الخاطئة أن تنتهي، فلا يبقى منها إلا أهل التوبة والتوحيد "هكذا كان الطوفان فاصلاً بين بنى آدم (بنى البشرية الأولى) وبنى نوح (بنى الخليقة الثانية) وإلى أبناء نوح الثلاثة وهم: سام وحام ويافت، الذين نجوا معه في السفينة، مازال علماء النسب يقسمون البشر، إلى: ساميين وحاميين ويافتيين (أى هند وأوروبيين).. ولكنه لم ينج من

الطوفان إلا أسرة نوح الصغيرة. وبناء على ذلك تبدأ بعد الطوفان دورة جديدة للإنسانية، كأنها بداية للمصور التاريخية. ولقد نظر الفرس والهند إلى حادثة الفيضان الكبير على أنها كارثة طبيعية محلية، ربما حلت بأرض بابل فقط، وإلا فلو كانت عامة شاملة لكافة الأرض المعمورة لعرف بها أهل بلادهم، وسجلها مؤرخوهم (الطبري وابن الأثير في المصدر السابق د. سعد زغلول عبد الحميد).



وقد كانت نبوة النبي هود في قبائل عاد التي كان موطنها اليمن وحضرموت، ونبوة النبي صالح في قبائل ثمود التي كانت تعيش في شمال الحجاز، نبوتين عربيتين خالصتين، جاءت قصتهما خارج سياق نبوات أسفار العهد القديم (التوراة). وتعكس قصة النبيين العربيين "طبيعة الحياة العربية على مستوياتها الاجتماعية والاقتصادية والدينية، كما أنها تربط بين معتقدات العرب المحلية في صحراواتهم وبواديهم، وبين تبجيلهم للحرم المكي الذي يمثل عامل الربط والتوحيد بين كل ديانة العرب قديما. وهي في النهاية تجعل من الكوارث الطبيعية عقابا حتميا من الله ينزله بالعصاة والفجار من الكافرين".

بخبرنا القرآن الكريم أن قبائل عاد، عصوا نبيهم هود، واستمروا في ضلالهم وعبادتهم لأصنامهم، وفي عتوهم في

الأرض "وأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة؟" ويذكر عبيد بن شريه في كتاب "الملوك وأخبار الماضين" أن أصنام قبائل عاد هي: صداء، ونعاء، وصمود، وأنهم بعد عصياتهم لنبيهم هود ورفضهم لما دعاهم إليه من ترك الأصنام وعبادة الله أنزل عليهم القحط الذي استمر ثلاث سنوات، سموا السنة الأولى بـ: حجرة، والثانية: كحلاء، والثالثة: كلحاء، وأنه عندما ذهب وفد منهم إلى مكة يستسقى ويطلب المغفرة، نسوا ما جاءوا من أجله وانصرفوا إلى طعامهم وملذاتهم ولهوهم، فاستحقوا العذاب، إلا من آمن منهم، فأرسل الله عليهم ريحا صرصرا عاتية، كأمثال الجبال لها لجم بأيدى رجال، كان في وجوههم شهب النار، حسب وصف ناختهم "مهد" التي توصف بأنها أول ناتجة عربية، والتي يقول عنها الشاعر:

رأت ما رأت "مهد" فقيل لها .. ماذا ترى؟

فقلت: أنظر العجبا!

أرى رياحا كأمثال الجبال لها.. لجم بأيدى رجل تشبه

الشهبا

وعصفت جبال الريح بقبائل عاد المتجيرة طوال "سبع ليل وثمانية أيام حسوما" ولم تتركهم إلا وقد صاروا كأعجاز نخل خالوية.

وفي أحد أعياد قبائل ثمود يطلبون من نبيهم صالح أن يأتي لهم بمعجزة يعتبرون بها، ويحددون نوع المعجزة بما يتناسب مع عقليتهم البدوية، فهم يطلبون منه أن يستخرج لهم من

الصخر "ناقة حمراء شعراء وبراء مبهرجة، لها ضجيج وعجيج ورغاء شديد، تكور لنا سائغا" ويخرج لهم النبي صالح الناقة حسب مواصفاتهم، ولكنهم يختلفون بشأنها، ثم يعقرونها ويقتسمون لحمها، ويرمون صغيرها، فيدعو صالح عليهم، فينزل الله بهم العذاب استجابة لدعائه، وقد استمر عذابهم أربعة أيام "ففى اليوم الأول اصفرت وجوههم، ثم إنهما احمرت فى اليوم الثانى قبل أن تسود فى اليوم الثالث، وأخيرا انتهم الصاعقة فى اليوم الرابع فقصت عليهم" ويترك النبي صالح أرض قومه إلى الشام، ويقوم زمنا فى فلسطين ثم ينتقل منها إلى مكة، فيقيم فى البلد الحرام بعد الله إلى أن يموت وهو فى الثامنة والخمسين من عمره، بعد أن استمرت دعوته فى قومه عشرين عاما.

"وبذلك ارتبطت دعوة هود وصالح بالعروبية من جهة، ويتقديس مكة من جهة أخرى، وذلك قبل أن يأتى إبراهيم الخليل (أبو الأنبياء) حوالى سنة (٢٠٠٠ قبل الميلاد) ليقيم قواعد البيت، ويدعو الناس إلى الحج، فيتم الربط بين الإبراهيمية الحنيفية وبين المحمدية الإسلامية. وهى بعد فكرة فى ضمير القدرة" ويمتد تراث النبوة بين العرب عن طريق النبي إسماعيل أبى العرب المستعربة من جهة وصهر العرب العاربة عن طريق زوجته الجرمية من جهة ثانية، إضافة إلى أنه ابن لهاجر المصرية من جهة ثالثة: الأمر الذى يجعلهم أحوال العرب. وهى أمور يؤكد عليها التراث الإسلامى فى صياغته لرسالة التوحيد التى تربط بين الحنيفية الإبراهيمية

وبين المسيحية الوسيطة، وبين الدعوة المحمدية.. وقد اهتم المؤرخون المسلمون القدامى ببيان أوجه الشبه بين الدعوة الإبراهيمية والدعوة الإسلامية. فكلتاها ضد عبادة الأصنام، وكلتاها مرتبطة بلريضة الحج، وتطلبت مناسك الحج أن يمتحن إبراهيم بعشر خصال، هي المعمول بها في الإسلام، لتطهير البدن، خمسة منها في الرأس، وخمسة في الجسد، والخمسة التي في الرأس هي: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، وفرق الشعر، والخمسة التي في الجسد هي: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، ونف الأبط، وغسل أثر الغائط.

ويمتد التشابه بين الخليل إبراهيم ونبي الإسلام إلى نذر عبد المطلب لأبي النبي عبد الله لآلهة، مثلما نذر الخليل ابنه إسماعيل، ولذلك يسمى النبي بابن الذبيحين (عبد الله وإسماعيل). ويعتبر العلامة ابن خلدون الخليل إبراهيم أباً ثالثاً للبشرية بعد آدم ونوح، باعتباره أباً للعرب جميعاً، وحيث جعل الله في ذريته النبوة والكتاب إلى آخر الدهر.

ويبدو الفارق بين الخليل إبراهيم والنبي محمد عليهما السلام، والذي حرص القرآن على تأكيده، هو اعتماد نبوة إبراهيم على المعجزة الخارقة المتمثلة في تحول النار من حوله إلى برد وسلام، إلى جانب اعتماد نبوته على الوحي الإلهي والإلهام الصادق، بينما اعتمدت النبوة المحمدية على الوحي الإلهي بالقرآن معجزته الكبرى، وإن كان التراث الشعبي الإسلامي قد افاض في إضافة العديد من المعجزات

والخوارق إلى السيرة النبوية كما ارتفع بعض المتصوفة
بشخصية النبي صلى الله عليه وسلم إلى مستوى الظواهر
الكونية، والعلل الأولى للموجودات، وأن اسمه موجود في كل
شيء في الجنة، من القصور إلى نحور الحور، إلى ورق أجام
الجنة، ولولاء لما خلق الله سماء ولا أرضاً، ولا طولا ولا
عرضاً، ولولاء ما كان لا ملك ولا فلك.. كلا ولا بان تحريم
وتحليل.



عاد وثمود فى الأسطورة والتاريخ

تمتزج الأسطورة بالتاريخ فيما يتصل بالقبائل العرب البائدة، وفى مقدمتها قوما عاد وثمود اللذان وردت قصتهما فى القرآن الكريم، كما أشرنا سابقا، وكان ورودهما فى القرآن، كغيرهما من القصص، بهدف العظة والعبرة بأحوال الأمم السابقة، وليس بهدف التوثيق التاريخى، وقد شكك بعض المؤرخين فى حقيقة وجود القبائل العربية البائدة: عاد، ثمود، طسم، جديس، أميم، جاسم، عليل، عبد ضخم، والعمالق، وجرهم الأولى. ونسبوا ما قيل عن هذه القبائل من قصص إلى خيال الرواة والباحثين، لكن الأبحاث الأثرية واللغوية الحديثة كشفت كثيرا من المعلومات والحقائق المتعلقة بتلك القبائل، وإن ظلت الأساطير ممزجة بتلك الحقائق، عن عاد وثمود وقصتهما مع النبيين هود وصالح، وقد كانت قصة عاد شائعة بين عرب ما

قبل الإسلام، الذين كانوا يعتقدون أنهم قوم موغلون في القدم، لذلك كانوا يصفون ما يردن المبالغة في وصفه بالقدم، بأنه: عادي. وفي لسان العرب: العادي هو الشيء القديم، أي أن الكلمة صفة وليست اسم علم. ويختلف الأخباريون القدامى، كعادتهم، في تفسير اسم "عاد" فهو عند البعض اسم لأبي القبيلة الذين يصلون نسبة لإرم بن سام بن نوح، ويعتمدون على ذلك في تفسير الآية القرآنية "ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد" ويقول إخباريون آخرون: أن عاد اسم لأم تلك القبيلة، أو اسم لبلدتهم، والعرب قد عرفوا كشعوب كثيرة الانتساب للأم في مرحلة ما قبل المجتمع الطبقي.

ويرى بعض المستشرقين المعتمدين على التفسيرات التوراتية للتاريخ أن هذا الاسم المؤنث يشير إلى اسم "عادة" زوجة لامك حفيد سام بن نوح. أو أم يabal، الذي ورد اسمه في سفر التكوين من العهد القديم، كوالد لرعاة المواشي سكان الخيام. ويحددون موطن قوم عاد في الأرض الشمالية الغربية من شبه جزيرة العرب. أما الذين يرون أن بلدهم هو إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد فيختلفون أيضا في تحديد موقعها: - فهي في أبين بين عدن وحضرموت، أو هي دمشق، أو الإسكندرية، كما يرى السعودي في كتابه 'مروج الذهب' وإرم هو من أسماء دمشق بالعبرانية. ويرى جورجى زيدان في كتابه 'العرب قبل الإسلام' أن اسم تلك القبيلة هو 'عاد إرم' معتمدا بذلك على التوراة والكتابات اليونانية.

لما مساكن قوم عاد، والتي أشار إليها القرآن الكريم

بالإحفاف "وأذكر أبا عاد إذا أئذ قومہ بالأحفاف وهي
الرمال الممتدة بين اليمن وعمان إلى حضرموت والشحر.
"وربما كان التحديد الجغرافي غير بعيد، فقد ذكر كثير من
الباحثين المنقبين في الجزيرة العربية أن الربع الخالي يشتمل
في طيات رماله على اثار مدينة أو حضارة بائدة، كانت
عظيمة الازدهار، وأنهم وجدوا بعض الشواهد على ذلك ()
ويقترن اسم عاد بشمود في كثير من الآيات القرآنية، وقد ذكر
الجغرافي الإغريقي بطليموس قوما سماهم "بهؤلاء القوم، أنهم
قوم عاد، بل ذلك هو الراجح، ويؤيده ما سبق أن ذكرنا من
إقتران عاد وشمود في كثير من النصوص القرآنية، مما يدل
على تجاوزهما وتقاربهما. كما أن بطليموس ذكر موضعا يقال
له "إرماد" الذي فسره العالمان "مودل ومورتس" بأنه هو "إرم"
أو "إرم ذات العماد" وهو يقع على مسافة ٢٥ ميلا شرقي
العقبة قرب الأردن.. وقد أظهرت الحفريات التي قام بها عالم
الاثار هورسفيل عام ١٩٣٢ في موضع جبل "إرم" صحفة هذا
الرأى، إذ ورد في الكتابات النبطية في خرائب معبد اكتشف
على جبل "رم" أن اسم هذا الموضع هو "إرم" الوارد ذكره في
القرآن الكريم. ومن الطريف أن الاخباريين والرواة القدامى،
قد وضعوا شعرا على لسان ابن هود الذي أسماه "قحطان" قاله
بعد أن هلك قومه وهم على الكفر، بقول الشعر:

إني رأيت ابن هود يوزقه
حزن دخيل ولبال وتسهاد

لا يحزنك إن خصيت بداهية
 عاد بن عوض فعاد بس ما عادوا
 عاد، عصوا ربهم واستكبروا
 وعتوا عما نهوا عنه لا سادو ولا قادوا
 قاموا يردون عليهم من سفاهتهم
 ريحا بها أهلكوا أيان ما بادوا
 والشعر واضح الوضع والانتحال، ولكن الرواة كانوا
 يضعون مثل هذا الشعر على لسان شخصيات التاريخ القديم،
 من باب التزيين الأدبي الذي يؤكد المعنى، غير ملتفتين إلى
 متعلقة هذا الشعر الموضوع، إلى درجة أنهم وضعوا شعرا
 عربيا على لسان آدم أبى البشر يرثى به ابنه الذى قتله أخوه!



كان العرب قبل الإسلام مباشرة يعرفون عن ثمود أكثر مما
 يعرفون عن عاد، وقد نسب بعض علماء الأنساب قبيلة ثقيف
 التى كانت تعيش فى الطائف إلى ثمود، كما نسب آخرون
 قبائل الهلالية إليهم.. وقد ورد ذكر ثمود فى القرآن الكريم
 مقترنا بعاد، كما أشرنا من قبل، وكما جاء فى سورة العنكبوت
 "وعاد وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم" كما يأتى ذكر قوم
 ثمود بمفردهم "وثمود الذين جابوا الصخر بالواد" أى قطعوا
 صخر جبال وادى القرى واتخذوا فيه بيوتا. ويقول المؤرخ
 والجغرافى المسعودى أن مساكن ثمود كانت بين الشام

والحجاز إلى ساحل البحر الأحمر، وأن ديارهم كانت بفج
 الناقة، وهو مكان قريب من الحجر، وأن بقاياهم كانت
 موجودة في طريق الحج بالقرب من وادي القرى.
 وقد ورد ذكر ثمود في المصادر الإغريقية وفي الطبريات
 الآشورية، كما حددت مساكنهم في المنطقة الواقعة شمال
 غربي اليمن، وقد عثر في اليمن على نقوش ثمودية مما يؤكد
 صلة الثموديين بجنوب الجزيرة، ووجدت نصوص ثمودية
 أيضا في مناطق حائل بنجد وفي أرض تبوك وتيماء ومدائن
 صالح، والسلاسل الجبلية بين هذه المنطقة وبين الحجاز
 والطائف، وفي شبه جزيرة سيناء، وفي الصفا شرق دمشق،
 وفي مصر () وقد أدرك قوم ثمود أيام المسيح، وعاشوا بعد
 الميلاد، وكانوا يقطنون تلك الأيام أعالي الحجاز في دومة
 الجندل والحجر، وفي غربي واحة تيماء في المنطقة المهمة
 التي يمر بها طريق اليمن الحجاز الشام مصر
 العراق. وقد تمكن (لانسكتر هاردنك) محافظ مديرية الآثار
 العتقة بالملكة الأردنية الهاشمية من تصوير ما يزيد على
 خمسمائة كتابة ثمودية أرسلها إلى المستشرق المعروف
 (ليتمان) يعود بعضها إلى ما قبل الميلاد، ويعود قسم منها إلى
 ما بعد الميلاد () ومن المعروف عند العرب أن الثموديين
 كانوا أيضا من عبدة الأوثان، كفروا بالله وخاندوا عن أمره،
 فأرسل الله إليهم النبي صالح يعطهم وينذرهم، ولكنهم لم
 يذعنوا لأمر الله على لسان نبيه صالح، فأرسل الله عليهم
 الصاعقة بظلمهم، فأصبحوا من ديارهم جاثمين. ويرى

المستشرق (براي) أن ثمودا أصيبوا بكارثة عظيمة هي عبارة عن ثوران براكين وهزات أرضية، لأن المناطق التي كانوا يسكنونها من مناطق الحرارة: أي الأرض السوداء، كما أن عبارتي: رجفة، وصيحة، الوارد ذكرهما في القرآن الكريم تؤيدان ذلك".

إنداسات في العصر الجاهلي. تأليف أحمد أبو الفضل _
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية].



قريش والبيت الحرام

كانت الكعبة، أهم الأماكن المقدسة عند العرب قبل الإسلام، إذ كانت الرمز الأشمل لحياتهم الروحية، وقبل البعثة المحمدية مباشرة كانت قد خصصت للإله الوثني (هبل)، الذي جلبه العرب من مملكة الأنباط التي كانت قائمة مكان الأردن حاليا. ولكن ارتباط العرب بالكعبة والمكانة الرفيعة التي كانت تحتلها في وجدانهم تشير إلى أنه كان، فيما يبدو، البيت الذي بنى في أول الأمر لله، وهو الرب الأعلى للعرب.. وكانت حول الكعبة منطقة دائرية كان الحجاج يقومون فيها بشعيرة الطواف، أي أن يطوفوا سبع مرات حول الكعبة في اتجاه حركة الشمس، وكان حول الكعبة كذلك ٣٦٠ صنمًا، أو تماثيل للأرباب، وربما كانت رموزا طوطمية لشتى القبائل التي كانت تحج إلى البيت في الشهر المحدد لذلك.. وكانت المنطقة المحيطة بمكة

(وهي نصف دائرة قطرها عشرون ميلا ومركزها الكعبة)
أرضاً حراماً، أى أنها كانت حرماً لا يسمح فيها بارتكاب
أعمال العنف أو القتال.

وقد حفظ لنا كتاب "الأصنام" للكلبي، وكتاب "رسالة الغفران"
لأبي العلاء المعري بعض الأدعية الدينية التي كانت ترددها
القبائل العربية في الكعبة أمام الهتها الخاصة قبل الإسلام،
وكان لكل قبيلة "تهليلاتها" الخاصة، التي تأخذ شكل النظم
الشعري البسيط والأقرب إلى الأشعار الفلكلورية. كما تشير
سيرة عشرة إلى العديد من طقوس الجاهلية الدينية حول الكعبة
والهتها الوثنية.. وتري الباحثة البريطانية كارين أرمسترونج
في كتابها "سيرة النبي محمد" أن البيت الحرام كان يتمتع
بقداسة مشتركة بين أبناء الجنس السامي (شعوب منطقة
الشرق الأدنى قديماً) وأن الدين السومري القديم هو الذي
نبعت منه فكرة الدائرة، والأركان الأربعة، التي تمثل أركان
الأرض الأربعة، والرموز المقامة حول الكعبة وعددها ٣٦٠،
تشير إلى عدد أيام السنة السومرية المكونة من ٣٦٠ يوماً،
إلى جانب خمسة أيام مقدسة يقضيها الناس "خارج الزمن"
للقيام بشعائر خاصة تربط ما بين الأرض والسما. ومن
المحتمل أن تكون شعيرة الحج تمثيلاً لتلك الأيام الخمسة،
فالحج يؤدي مرة واحدة في العام، ويشارك فيه العرب من
شتى أنحاء الجزيرة. وشعائره تبدأ من الكعبة ثم بعد ذلك
المزارات المقدسة خارجها، وفي نظر بعض العلماء أن تلك
الشعائر المختلفة، قد يكون القصد منها تمثيل تعسف الشمس

المحتضرة (كان الحج فى البداية يتم فى موسم الخريف)
استدرازا لأسطر الشتاء، إذ يندفع الحجاج جميعا إلى قاع
وادي المزدلفة، حيث يسكن إله الرعد، ثم يسهرون طوال الليل
على السهل المحيط بجبل عرفات، الذى كان يبعد عن مكة
بنحو ستة عشر ميلا، ثم يرجمون بالحصى الأعمدة الثلاثة
المقدسة فى "منى" وأخيرا ينحرون ذبيحة يقدمونها أضحية أو
قربانا. ولا يفهم أحد اليوم حقا ما كانت تلك الشعائر تعنيه
آنذاك، والأرجح أن العرب أنفسهم كانوا قد نسوا، فى عصر
النبي، الدلالة الأصلية لها، ولكنهم ظلوا على ارتباطهم الوثيق
والعميق بالكعبة وغيرها من المزارات المقدسة فى بلاد
العرب، ولم يتوقفوا بل استمروا فى أداء الشعائر الخاصة بها
فى تلقا وإخلاص.

كان موسم الحج يعنى بالنسبة للعربى، إلى جانب الالتزام
الدينى، ضرورة نفسية وإبداعية فى الخروج عن الرتبة
المضجرة، والكفاح المرير من أجل الحياة، والصراع الضارى
الذى تحكمه التقاليد القبلية، ففي أيام الحج لا قتال ولا اعتداء،
كما كان لآيام الحج جانبها الاقتصادى التجارى، وكانت مكة
من أسواق العرب المهمة السنوية، وكان الحرم نفسه على
الأرجح، يمثل العالم، أى الأرض بأركانها الأربعة المنبثقة من
مركز معين، ويبدو أن الدائرة من النماذج الفطرية القديمة،
التي نجدها فى جميع الثقافات تقريبا رمزا للخلود، وللعالم
والنفس. وهى، تمثل، مكانيا وزمانيا، كلا كاملا، ومن ثم
فالسير فى محيط الدائرة أو الطواف حولها (وهو من

الممارسات الدينية المشتركة بين أديان كثيرة) يعنى أنك دائما ما ترجع إلى النقطة التي انطلقت منها، إنك تكتشف أن النهاية هي البداية () ومعظم الأماكن المقدسة، في شتى الثقافات التقليدية، يرى الناس أنها تقع في مركز العالم، وأنها كانت أولى الأماكن التي خلقها الآلهة. وكان الحاج يرى أنها قد اكتسبت بهاء البدايات وروائها وكان يحس أنه يقترب، بصورة ما، من مركز القوة في الوجود.

لقد اشتهرت قریش بانشطتها التجارية والدينية قبل الإسلام، كما اشتهرت بقوتها الأخلاقية وفضائلها التي كان أبرزها فضيلة "الحلم" وهي الفضيلة التي مكنتها من أن تصبح أعظم قوى في بلاد العرب في القرن السادس الميلادي، كما مكنتها من موقف الحياد في الصراع الدائر بين بيزنطة وبارس (القوتان الأعظم آنذاك).. فهي لم تكن تريد لبلادها مصيرا كمصير اليمن التي أصبحت ولاية حبشية.. وقد أحبط انسحاب جيش أبرهة الحاكم الحبشي من مكة وقبضه في الاستيلاء عليها، في الحادثة المعروفة بقصة (أصحاب القليل) بتمجيد لقریش، وعلو من شأنها، فأصبح العرب ينظرون إلى القرشيين، كما يقول ابن هشام في السيرة النبوية على أنهم "أهل الله، قاتل الله عنهم، وكفاهم مؤنة عدوهم".

لقد أراد أبرهة أن يحول أنظار العرب إلى الجنوب بعد بنائه معبدا مسيحيا فخما في صنعاء. ولما لم ينجح سلما، خرج بجيشه ليهدم الكعبة، وليحول القبائل العربية بتجارها وشعائرها عنوة عن مكة. وأصاب الطاعون جيشه، وجثا القليل

على ركبتيه خارج البقعة المقدسة ورفض الحركة، وهاجمت
الطيور القادمة من ساحل البحر الأحباش بحصباء مسمومة،
وحولتهم الطير الأبابيل، إلى ما يشبه العصف المأكول.

وكان ذلك العام هو العام الذي شهد ميلاد النور المحمدي في
مكة، ومن صلب فريش.



برى جرجى زيدان في كتابه "العرب قبل الإسلام" أن اسم
مكة من أصل بابلي آشوري.. لأن الكلمة تعني "البيت" في
البابلية، وهو اسم الكعبة عند العرب، وقد امتازت مكة على ما
يحيط بها من الياضية ببيوتها الحجرية، وقد أشار الجغرافي
اليوناني بطليموس إليها باسم (ماكورابا). كما جاء ذكرها عند
ديودور الصقلي في القرن الميلادي الأول.

وتقع مكة في منتصف طريق القوافل بين اليمن والشام في
أحد أودية جبل السراة، وهو الوادي الذي وصفه القرآن الكريم
بأنه "غير ذي زرع". ولكنها كانت فيما قبل الإسلام مركزا
تجاريا ودينيا هاما، وفي منتصف القرن الخامس الميلادي
استولى قصي بن كلاب وقبيلته فريش على مكة وأخرجوا
منها قبيلة خزاعة، ولم يصل الباحثون إلى رأى حاسم فيما
يتصل بأصل اسم فريش، وللطيرى نص طويل يفهم منه أنه
ليس اسم شخص بل اسم سمكة ربما كانت "طوطم" القبيلة، أو
صفة أطلقت على بعض زعمائها الأولين مثل النضر بن كنانة

() وبعضهم يشتقها من القرش أى التجمع أو من سمكة القرش. ويقول الأستاذ لامانس فى كتابه "مكة قبل الهجرة" إن هذه المدينة نشأت فى موقع ممتاز عند أطراف أسيا البيضاء وفى مواجهة القارة الأفريقية السوداء، كما تقع أيضا عند منخفض كبير فى جبال السراة التى تقطع الحجاز من الشمال إلى الجنوب.. وقد استغل قصي بن كلاب زعيم قريش الأهمية الجغرافية والدينية لمكة "وقد نشأ هذا الرجل عند القبائل العربية التى تقيم عند أطراف البادية، واستطاع أن ينتزع مكة انتزاعا من أبى القبائل العربية التى كانت تسبطن عليها من قبله، ويقال أن البيزنطيين وعملاءهم من الخساسة قدموا له العون فى هذه الحركة الانقلابية، ويؤكد الأستاذ لامانس حدوث هذه الواقعة، ويمتدل على ذلك من اسم هذا الزعيم نفسه، فاسمه فى العربية معناه: الولد أو الغريب. ومن ناحية أخرى ورد اسمه فى النقوش النبطية القديمة، فاسم قصي كان من أسماء الآلهة عند الأنباط، الأمر الذى يدل على صدق ما يقال عن نشأة هذا الزعيم عند أطراف الشام، ثم انحدره إلى مكة فى القرن الخامس الميلادى. واستطاع أن ينشئ جمهورية تجارية دينية تفيد من موقع مكة إلى أبعد الحدود... وقد كان مجتمع مكة يتكون من طبقتين رئيسيتين، الأولى، ويطلق عليها تسمية: "قريش البطاح" وهم الذين يتولون أمر الدين والتجارة والسلطة، وبيوتهم حول الكعبة.. والثانية هم ما يطلق عليهم: "قريش الظواهر" ويقيمون خلف بيوت السادة، وهم خليط من قراء قريش، ومن الحلفاء الموالى والعبيد، الذين يعملون فى المهن المختلفة، وقد كان من بين هؤلاء السابقين إلى الإسلام: كعب بن ياسر وأهله وقد كانت أمه بغيا قبل الإسلام، وبلال

الحبشي، وصهيب الرومي وسلمان الفارسي وغيرهم من
المستضعفين الذين عيرت بهم قريش النبي، إذا كانوا من أوائل
أتباعه الذين رد لهم الإسلام إنسانيتهم، فقالوا عنهم: "وهل
اتبعه منا إلا الذين هم أرذلنا".



(٣)

القرآن

كمصدر للقصاص الديني

ارتبط القصص الديني الإسلامي، منذ بداياته، بالقرآن الكريم وما جاء فيه من القصص الذي شكل أهم وأدق القصص الديني، من حيث هو القصص القرآني "أحسن القصص" و"القصص الحق" كما أنه سجل لآلئاء وأعمال الشعوب السالفة وأنبيائها ورسلها، وما يحمله تاريخهم من خبرات إنسانية صالحة لأن يعتبر بها أولوا الألباب. ويشير الفخر الرازي في تفسيره الكبير، إلى القصص القرآني بأنه "مجموع الكلام المشتمل على ما يهتدى إلى الدين، ويرشد إلى الحق، ويأمر بطلب النجاة" وزاد الرمخسري في تفسيره بأنه "القصص الذي يرفق القلوب". ويحتل قصص الأنبياء المقام الأول في القصص القرآني، لما لسيير الأنبياء وتاريخهم من دور مهم في التاريخ الإنساني، كتجسيد للضمير الجمعي للبشرية، وكسجل لمسيرة الإنسان الروحية الإيمانية، في مقابل المسيرة السياسية والاجتماعية التي يمثلها التاريخ السياسي، لذلك ربط المؤرخون القدامى بين جانبي تاريخ البشرية: تاريخ الرسل وتاريخ الملوك، كما فعل الطبري في تاريخه المعروف، أو بين ظاهري التاريخ الإنساني وباطنه حسب تعريف العلامة ابن خلدون. ويضرب قصص الأنبياء بجذوره الأولى إلى طفولة البشرية، وسعيها المبكر إلى التعرف على قواين الطبيعة ونواحيها التي تجسد الإرادة الإلهية.

وقصص الأنبياء، والشعوب البشرية، التي صاغها وأعاد روايتها عن مصدرها القرآني الإلهي، "القصص والوعاظ شفاها في عهد الرسول والعصور التالية وكما رواها المحدثون والإخباريون والمؤرخون في كتب السنة، والسيرة، والتفسير، والتاريخ، والتصوف، وغيرها". قد انتقلت بعد ذلك إلى كتب الأدب العام، وإلى مرويات التراث الشعبي. وتمثل سيرة ابن هشام، والسيرة الحلبية، وكتب المؤرخين القدامى، كالطبري، واليعقوبي، وابن كثير، وابن خلدون، وكذلك كتب تاريخ الأديان، كالمال والنحل للشهرستاني، وكتب التفسير والحديث، والكتب الخاصة بقصص الأنبياء، تمثل هذه الكتب مصادر القصص الديني الإسلامي بداية من قصص الأنبياء إلى قصص أهل القرى البائدة، إلى السيرة النبوية الشريفة. وقد اتسعت هذه المصادر بعد ذلك، لتشمل كتب الأدب العام، كالعقد الفريد لابن عبدبر، وأمالى أبي علي الغالي، والكامل للمبرد، وغيرهم.. كما ضمت السير الشعبية في متونها بعض قصص الأنبياء كما في سيرة عنترة. وأضاف المؤلفون والمصنفون لهذه الكتب، إلى النصوص القرآنية، التي بنوا عليها قصصهم وسيرهم، ما توفر لهم من التراث الإنساني، كقصص التوراة والإنجيل، وهو ما عرف بعد ذلك بـ "الإسرائيليات" والأساطير الفارسية والهندية واليونانية، وهو ما عرف بـ "أساطير الأولين" ثم أخبار العرب القديمة وأساطيرها وتاريخ أيامها قبل الإسلام، الأمر الذي جعل من هذا القصص الديني كنزا غنيا بالمادة الأولية للإبداع الأدبي، والتاريخ للوجداني للبشرية، في سعيها الدائب للهداية والدين

الحق.

وإذا كان المؤرخون لم ينظروا إلى هذه المادة الغنية، كمصدر موثوق للمادة التاريخية، وإنما كإطار زمني لبعض الأحداث، فإن هذا الموقف لم يمنع بعض المؤرخين ومؤلفي السيرة القدامى من النظرة الرحيبة والمستتيرة لهذه المادة الغنية، مثلما فعل صاحب السيرة الطيبة، الذي نظر إليها كرقائق لا تدخل في الحلال والحرام، ولا تتعلق بها الأحكام. أما ما يجوز الخلاف فيه في نظر علماء الحديث، وما يوجب بالتالي التنقيق والتنقيب، من أجل الوصول إلى صحة الخبر، فهو ما يخص حدود الشريعة ومعرفة الحلال والحرام. وكذلك يشير الدكتور سعد زغلول عبد الحميد في دراسته "الأنبياء والمتنبئين قبل ظهور الإسلام" إلى أن القصد من الدراسة لن يكون تحديد الإطار التاريخي للموضوع "بقدر ما سيكون محاولة معرفة نظرة الإسلام الكلية إلى تسلسل الأنبياء والمتنبئين. بطريقة تحمل في ثناياها فكرة وحدة العقائد والأديان، فكان الإسلام ليس دين التوحيد الإلهي فحسب، بل هو عقيدة وحدة الأديان على مر العصور، وهي الفكرة التي تتمثل في أصول الإسلام الإبراهيمية، وفي ختام النبوة بالرسالة المحمدية". لقد ارتبط تاريخ البشرية الإيماني بالأنبياء، منذ بداية الخليقة ووعدها لذاتها، ويكاد عدد الأنبياء الذي تشير إليه أخبار التراث الإنساني، يفوق الحصر العددي، فالنبوة كما يشير القرآن الكريم مرتبطة بالمشيئة الإلهية وبالوحدانية "ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أتولوا أنه لا إله إلا أنا فاتقون" وقد بعث الله برسله إلى

كل الأمم، بلا استثناء، يدعوهم إلى عبادته واجتتاب الطاعات، وهؤلاء الرسل الموحى إليهم من الله، والذين سبقوا برسالاتهم، يعرفهم العلماء من أهل الذكر، فالعدالة الإلهية لم تعاقب الظالمين والجاحدين من الشعوب السابقة، قبل أن ترسل إليهم من يبلغهم برسالة الله وتعاليمه "وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون".

لم يحدد القرآن الكريم إلا أسماء الأنبياء الأساسيين: آدم - نوح - إبراهيم - موسى وعيسى ثم محمد خاتم الأنبياء عليهم السلام. يليهم: داود وسليمان ويعقوب ويوسف وإيوب؛ وإسماعيل، وشعيب، وهود وصالح عليهم السلام. وينتمى هؤلاء الأنبياء إلى العبرانيين والسريان والعرب، وهي الشعوب العروبية، التي شكلت الحضارات الإنسانية الأولى في منطقة الشرق الأدنى القديم. لذلك أطلق المؤرخون القدامى لخيالهم العنان في إحصاء عدد الأنبياء.. فالمسيرة الطويلة تشير إلى أن أنبياء بني إسرائيل وحدهم ألف نبي.. ويصل وهب بن منبه راوي أساطير الأولين بعدد الأنبياء جميعا إلى مائة وأربعة وعشرين ألفا! أما الرسل فقد اقتصر عددهم على ما ورد في القرآن الكريم، "لأن الرسل أخص من النبي، ولأن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولا".



الرؤية القرآنية للتاريخ: الزمان

ليس القرآن الكريم، كما أشرنا من قبل كتاب قصص عن الأنبياء والرسل والأمم السابقة، كما أنه ليس كتاب تاريخ يتتبع سير الأجيال وتاريخ الشعوب، ولكنه تنزيل من رب العالمين على نبي الإسلام صلوات الله وسلامه عليه يفيد من قصص الأنبياء وسير الأولين، وتاريخ الأمم والملل والنحل في الدعوة إلى حياة جديدة سامية، تعني تجربة الماضي في جوهرها، تاركة الوقائع والتفاصيل للمؤرخين والرواة.

ويشير القرآن الكريم إلى هذا المنهج صراحة، فهو يخاطب النبي عليه السلام بقوله: "ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك، منهم من قصصنا عليك، ومنهم من لم نقصص عليك" وما كان على الرسول أن يبينه: قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به، فقد لبثت فيكم عمراً من قبله، أفلا تعقلون. فمن أظلم ممن افترى

على الله كذبا أو كذب بآياته، أنه لا يفلح المجرمون". فالقرآن الكريم على أساسا بجوهر الرسائل الدينية التي سبقته، والذي تمثل في الحضارات التي شهدت هذه الرسائل، سواء منها تلك الحضارات التي سادت ثم بادت، كما حدث في الحضارات العربية القديمة، أو تلك التي تعرضت فيها الكتب المقدسة إلى تحريفات توافق أهواء ومصالح المسيطرين على هذه الحضارات فالتأريخ على حد تعبير السيد محمد رشيد رضا في "تفسير المنار" غير مقصود للقرآن الكريم "لأن مسأله من حيث هو تاريخ، ليست من مهمات الدين، من حيث هو دين، وإنما ينظر الدين من التاريخ إلى وجه العبرة دون غيره، لم يبين الزمان والمكان، كما بينا في سفر التكوين". (السفر الأول من أسفار العهد القديم في الكتاب المقدس - التوراة). والأمر كذلك في رأي الدكتور محمد أحمد خلف الله في كتابه "الفن القصصي في القرآن الكريم" إذ يرى أن القرآن الكريم لم يقصد إلى التاريخ إلا في القليل النادر الذي لا حكم له، وأنه على العكس من ذلك، عمد إلى إيهام مقومات التاريخ من زمان ومكان. ومن هنا يتبين أن القوم قد عكسوا القضية حين شغلوا أنفسهم بالبحث عن مقومات التاريخ، وهي غير مقصودة، وأهملوا المقاصد الحقيقية للقصص القرآني.

وفي دراسة مهمة للدكتور عبد العزيز كامل أستاذ الجغرافيا البشرية، والمفكر والمباني المعروف، عن "القرآن والتاريخ" يحدد علاقة القرآن الكريم بعناصر التاريخ من زمان ومكان وأحداث وشخصيات وأبطال ومناهج التاريخ في جمع

المعلومات وتحقيقاتها وتفسيرها، وصناعة التاريخ، بمعنى استلزامه في صناعة المجتمعات الإنسانية.

يبرز القرآن ثلاثة أنواع للزمان، هي: الزمن الكوكبي الفلكي، والذي تقوم عليه حسابات البشر في معاشهم، كما تقوم عليه حسابات العبادات كالحج والصوم والصلاة والزكاة، وأعمار الحضارات ودورات ازدهارها وسقوطها، يقول الله تعالى: "أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون، من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا، ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون".. كما يقول تعالى عن منكرى البعث: "والذي قال لولديه أف لكما اتعد اتنى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى، وهما يستغيثان الله، ويلك أمن أن وعد الله حق، فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين". وإلى جانب اهتمام القرآن الكريم بالزمن الكوكبي، فقد اهتم بما قبل هذا الزمان، أى ما قبل خلق الكون والإنسان، كما اهتم بما بعد ذلك الزمان "يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات، وبرزوا لله الواحد القهار".. واهتم القرآن بالزمن النفسى، أى بإحساس البشر بالزمن، ويضرب الله له مثلا بحوار يدور يوم القيامة:

قال: كم لبثتم فى الأرض عدد سنين؟
قالوا: لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين.
قال: إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم تعلمون فحسبتم إنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون".

ويستوقف النظر الفارق بين معالجة القرآن لأجزاء الزمان، ومعالجة سفر التكوين فى العهد القديم لها.. حيث ورد فى الإصحاح الخامس من سفر التكوين ما نصه: "هكذا كتاب موليد

ادم. يوم خلق الله الإنسان على شبه الله صله، ذكرنا وأنشئ خلقه الله وباركه، ودعا اسمه ادم خلق. ذرية ادم أسما أسما، وعصرا عمرا حتى طوفان نوح، ثم تتعاقب سلالة نوح أسما أسما وعمرا عمرا". ويعقب الباحث موريس بوكاي في كتابه "دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة" بقوله: "ولكى نكون أكثر قربا من الحقيقة، لنقل أن خلق العالم بحسب هذا التقدير العبري يحدد تقريبا بسبعة وثلاثين قرنا قبل الميلاد. وهناك استحالة وجود اتفاق واضح بين ما يمكن استنتاجه من المعطيات الحسابية لسفر التكوين الخاصة بظهور الإنسان، وبين أكثر المعارف تأسسا في عصرنا".

ويفسر الدكتور عبد العزيز كامل سورة يوسف في ضوء أسلوبين في معاملة الزمان جمع بينهم القرآن في تلك القصة. ففي موقفه عليه السلام من امرأة العزيز لا تحدد المدة في القصة ولكن يشير إلى الزمن إشارات مجملية: "حتى حين" و"بضع سنين".. أما عندما يتصل الزمان بالتخطيط لإنقاذ الناس من المجاعة المنتظرة، فيبدو حساب الزمن دقيقا، "قال: تزرعون سبع سنين دابا، فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون، ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمت لهن إلا قليلا مما تحصنون، ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون". فقد ارتبط حساب الزمن هنا كما يقول الدكتور عبد العزيز كامل بالتخطيط والعدل، كما ارتبط إغفال الزمن بالتسبب والظلم، وكان تعريف الزمن وتكثيره، عاملا مساعد على إبراز الظاهرة الاجتماعية، ويبدو من هذا كيف تخدم الحقيقة التاريخية هدف القصة في القرآن.

الرؤية القرآنية للتاريخ: المكان

.. وكما أن القرآن الكريم كما أسلفنا ليس كتابا في القصص أو التاريخ فهو أيضا ليس كتابا في الجغرافيا، فاهتمامه بالمكان ينبع وينتج إلى الدعوة الإسلامية، فمركز التاريخ الإنساني في القرآن هو البيت الحرام، أول بيت وضع للناس وحوله منطقة القلب التي ترتبط بها شعائر العبادة الأساسية من الصلاة والحج: الوحدة والتوحيد، والكسب الحلال للإبفاق الحلال وأرزاقهم من الثمرات لعلهم يشكرون" وحولها دائرة الغزوات حيث يمثل الدفاع عن العقيدة وحمايتها، وثليها دائرة الاعتبار في القصص الممتد على المحورين الشمالي والجنوبي، ثم دائرة واسعة غير محدودة تمثل وجوب السير في الأرض لمزيد من الاعتبار، سيرا إلى مطالع الشمس ومغاربها، وعملا في مجال

العقيدة، والإنشاء والتعبير، والحصول على مزيد من العلم مع التواصل الدائم به.

ويتتبع الدكتور عبد العزيز كامل في دراسته "مدخل جغرافي إلى قصص القرآن الكريم تفاصيل هذا الإجمال.. فالبيت الحرام الذي يمثل منطقة القلب في القصص القرآني والتاريخ الإنساني، يرتبط به أكبر عدد من الأسماء متجمعة: البيت، مكة، مقام إبراهيم، للصفاء، المروة، عرفات، المشعر الحرام، ثم ما جاء بصفته لا باسمه كالغار الذي لوى النبي في هجرته ثم نطاق الغزوات" الذي يحيط بمنطقة القلب، المدينة، وقد وردت في القرآن الكريم باسمها كما وردت باسم يثرب، وغزوة بدر وقد اختصها القرآن ب ورودها في ثلاثة أماكن: فهي بدر وهي العنوة الدنيا والعنوة القصوى.

وعلى محيط دائرة القلب أو قريبا منها توجد: اليمن، العراق، الشام، مصر، وفي نطاق هذه الدائرة وقعت معظم أحداث القصص القرآني.. ففي جنوبى اليمن وقعت أحداث قصة قوم عاد ونيهم هود.. "وانكر أخا عاد إذ أنذر بالاحقاف" وهي جبال الرمل باليمن، وقد كانت موطننا غنيا، ثم سبا التى كان لهم فى مساكنهم أية "جنتان عن يمين وشمال" ومازالت آثار سد مأرب والجنتين باقية.

وعلى المحور الشمالى حيث طريق التجارة، تقع قرى قوم لوط التى أشار إليها القرآن الكريم باسم المدينة، والمبيل المقيم، والموتفكات، ثم مدين، التى يسكنها أصحاب الأيكة. وديار ثمود أو أصحاب الحجر، الذين كانوا ينحتون من الجبال بيوتا أملين،

والذين أخذتهم الصيحة مصيحين.

ثم يتفرع محور الشمال في الجغرافيا القرآنية إلى ثلاث شعب.. الأولى إلى الشمال، حيث المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله.. ثم بلاد الروم، الذين غلبوا في أنبي الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون.. وقرية سورة ياسين التي يرى الزمخشري في تفسيره أنها انطاكية.. وامتدادا لقوس بلاد الشام الموصل للعراق، هناك بابل، وتتصل بالعراق قصص نوح وإبراهيم، كما يتصل بالشام قصص إبراهيم وذريته. ثم إلى الشمال الغربي حيث مصر، التي افتخر فرعون بملكها "ليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي؟" وفي الطريق إلى سيناء: "وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصيغ للأكلين" وترتبط بمصر قصص: إدريس، إبراهيم، اسحق وبنيه، إسماعيل، يوسف، موسى وعيسى ومحمد في ليلة الإسراء وبولده إبراهيم من ماريه القبطية.

أما القصص القرآني التي لم يحدد مكانها، فأبرزها: قصة آدم، قصة أهل الكهف، وقصة بدء التاريخ الإنساني في القرآن هي قصة الأب الأول آدم: "يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء، واتقوا الله الذي تسالون به والأرحام أن الله كان عليكم رقيبا.." وترد قصة أبي البشرية الأول في مطالع سورة البقرة في القرآن الكريم، كما ترد في سفر التكوين الذي يبدأ به العهد القديم من الكتاب المقدس. وتلتقي القصة التوراتية مع القصة القرآنية في بعض الجوانب، ثم تختلفان في نواح جوهرية.. ويأتي الاتفاق في وجود الأب الأول والأم الأولى، وفي كرامة البداية، ثم في

تعرضهما للاختبار ، أما الخلاف الجوهرى، فهو فى قضية "التوبة" حيث غفر الله لادم وتاب عليه، يقول تعالى فى سورة طه "وعصى ادم ربه فغوى، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى" .. وقد وردت توبة ادم فى القرآن مرتين، الاولى فى سورة طه المكية، والثانية فى سورة البقرة المدنية "كانت عند ادم وزوجه حرية الاختيار وكانت تجربته الاولى نجاحا: عندما علمه ربه الاسماء، ثم امره أن يخبر بها الملائكة، فقام بأمر الله، ما ضل ولا نسى، وعلم ادم الاسماء ثم عرضها على الملائكة فقال: انبئوني باسماء هؤلاء أن كنتم صادقين. قالوا: سبحانك، لا علم لنا إلا ما علمتنا أنك أنت العزيز الحكيم، قال: يا ادم أنبئهم باسمائهم، فلما أنبأهم باسمائهم قال: ألم أقل لكم انى أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون" ثم تجرى حرية الاختيار وهى التجربة الثانية "فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوءاتهما. قال: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين".

كانت التجربة صراعا بين الطموح بكل مغرباته، وبين صريح أمر الله، كانت تجربة أولى فى حرية الاختيار، تاب منها ادم وقبل الله توبته، وتلقى من الله كلماته، وجعله خليفة فى الأرض، وهو نبي مكرم، هذا بعد أن كفل له فى الجنة أموراً هى حاجات الإنسان الأساسية "إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى" فليس هناك خطيئة سابقة، فتوبة الله على ادم سبقت. وكلمات الله تهيئه الطريق. لا لعنة. لا عقوبة. لا عداوة بين الرجل والمرأة. ولا بين الإنسان والأرض. ولا بين الإنسان والحيوان، وهذه الصورة القرآنية تخالف ما يصوره الإصحاح الثالث من سفر التكوين".

القرآن وأبطال التاريخ المجهولون

عرض القرآن الكريم قصص الأنبياء ضمن مفهوم يؤكد على بشريتهم من جهة وعلى اتباعهم لأوامر الله من جهة ثانية، يقول الله تعالى على لسان نبيه الكريم: "قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي إنما إليكم إله واحد، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً" ويقول تعالى عن الأنبياء والمرسلين السابقين: "وما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنَّهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَمْشُوا فِي الْأَسْوَاقِ" .. وهم جميعاً سيقانون الموت، وتبقى رسالاتهم، كما أنهم جميعاً خلقوا من تراب.. وتنبع عصمتهم من اصطفاء الله لهم، "إن الله اصططفى آدم ونوحاً وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق على العالمين، ذرية بعضها من بعض، والله سميع عليم" .. وهذا المفهوم للمعصية النبوية البشرية يخالف مفهوم النبوة في أسفار العهد القديم.

ومما تفرد به القرآن الكريم عنايته بالأبطال المجهولين في التاريخ، فقد اختصهم بعدد من الآيات، وأشاد بمواقفهم، وسلط عليهم من الضوء ما تجاوز ما سلطه على بعض الأنبياء، وقد لفت هذا الأمر اهتمام بعض المفسرين والمؤرخين والباحثين إلى هذه الشخصيات التي لم يتوقف عندها كتاب الملاحم ورواة الأخبار، وحاولوا أن يتقصوا أخبار هؤلاء الأبطال المجهولين: ما هي أسماؤهم، ومتى عاشوا، وأين؟ كما جذبت قصة أهل الكهف وهم من هؤلاء المجهولين اهتمام عدد من الباحثين لتحديد الموقع الذي كان فيه الكهف، والذي رأى البعض أنه في موقع قريب من العاصمة الأردنية عمان، بينما رأى آخرون بأنه على قرب إفسوس بآسيا الصغرى، وإن كان القرآن الكريم، كما يقول الدكتور عبد العزيز كامل، يوجه عنايته أساساً إلى العبرة الأخلاقية دون تحديد الأشخاص، إلا حيث تقتضى العبرة ذكرهم، وقد تجاوز القرآن الكريم في قصص هؤلاء الأبطال المجهولين عناصر تحديد الأسماء والأماكن والأزمنة.



وأكثر قصص الأبطال المجهولين القرآنية تفصيلاً هي قصة "مؤمن آل فرعون" التي تبدأ بقوله تعالى في سورة طه: "وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه، وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذي يعدكم، إن الله لا يهدي من

هو مسرف كذاب" ثم يستمر السرد القرآني للقصة ثمانى عشرة آية تحمل خطاب الرجل المؤمن من آل فرعون إلى قومه منذراً إياهم ومحذراً من بأس الله، إذا جاء، ومن يوم مثل يوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، ثم يأتى ختام القصة بعد عرض مشاهد يوم القيامة، يوم يقوم الأشهاد لتؤكد أن الله ينصر رسله وينصر الذين آمنوا فى الحياة الدنيا والآخرة. والقصة مما تفرد به القرآن، وهى درس فى الدفاع عن الحق والدعوة إليه، لجأ فيها المؤمن إلى تذكير قومه بالآخرة، ثم ذكرهم بقوم نوح وعاد وثمود، وربط جحودهم بما حدث من آياتهم بعد وفاة يوسف "حتى إذا هلك قلتم لن نبعث الله من بعده رسولا" وكيف وقف المؤمن يعارض فرعون وهو يأمر وزيره هامان أن يبني له صرحا، يبلغ به أسباب السماوات ليطلع إلى إله موسى، ثم دعا قوم فرعون إلى اتباع الحق. وصرح الرجل بإيمانه بعد أن كان يكتمه، وحذر قومه مغية سيئات ما مكروا ونجى الله المؤمن وحاق بال فرعون سوء العذاب.

وتعرض سورة يس قصة مؤمن آخر دافع عن رسل عيسى للذين جاءوا إلى مدينته، فلما علم بهم، وبما يحملونه من هداية، ومن دعوة إلى الله، جاء من أقصى المدينة يسعى ليقول لقومه: "اتبعوا المرسلين، اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون" وتتضمن سورة الكهف قصص: أهل الكهف، وصاحب الجنتين الذى اغتر بما يملك، ثم يأتيه صاحبة المؤمن ليبدله على الصواب ويحذره من عاقبة الجحود، ثم قصة العبد الصالح الذى تعلم منه موسى، وقصة ذى القرنين: "ومع أن المدار الرئيسى لهذه

القصص جميعا هو الإيمان بالله تعالى، إلا أن مناشط هؤلاء الأبطال في المجتمع متنوعة، وتمثل الحرف الرئيسة، زراعة وصناعة وتشبيد (بناء).. وهذه البطولات المجهولة ممثلة ولا تزال تظهر في نصرة الحق، يقول الله تعالى: "من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلا". وجزاء الله لكل عامل من هؤلاء قائم:

"فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم، من ذكر أو أنثى، بعضهم من بعض، فالذين هاجروا من ديارهم وأولادهم في سبيلي وقاتلوا وقتلوا، لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب". وهكذا تدعو الآيات إلى متابعة رحلة الخير والعمران، وبناء الحياة الاجتماعية على قاعدة من العمل الصالح، منيرة الطريق أمام البطولات الجديدة التي لا تقتصر على مواقع محددة من المجتمع.

"وصفوة القول أن البطولة في القرآن لا تقتصر على الأنبياء، وإن كان لهم فيها النصيب الأوفى، ولا تقتف كثيرا عند الملوك، وإنما تمتد مظللتها لتشمل الأبطال المجهولين والجموع المؤمنة. وإذا كانت العناية قد زادت في الاتجاهات التاريخية المعاصرة بحركات الشعوب والجماعات الإنسانية، وفيها الكثير من البطولات المجهولة، فإن قطاعات التاريخ التي عرضها القرآن الكريم تضم هذه جميعا وتتسع له".



القرآن .. وأساطير الأولين

للغرب مثل بقية شعوب الأرض أساطيرهم، وقد مروا كما مرت تلك الشعوب "بالمرحلة الأسطورية" التي يعرفها بعض الباحثين بأنها قطعة من حياة الروح التي تعكس تفكير الشعب الحلمى، فالحلم هو أسطورة الإنسان الفرد، كما أن الأسطورة هي مغامرة العقل البدائى الأولى.. كما إنها هي الرحم الذى خرجت منه فنون المرد الشعرية والنثرية، كالملاحمة، والنراجيديا، والحكاية، وفى تراثنا العربى - تنمى الأسطورة والقصة معا إلى مرحلة الثقافة الشفاهية، التى ما زالت مستدة حتى عصرنا.

وفى الأدبائ القديمة قامت الأسطورة مقام العقيدة بمعناها الشامل والمقدس، كما كانت لها وظيفتها الاجتماعية والقانونية والأخلاقية، وهى فى صيغتها الأولى كانت رمز الجانبين: أحدهما اعتقادى تكون فيه الأسطورة أداة للمعرفة والكشف

والفهم والتنظيم، والآخر طقسي يستهدف استرضاء الآلهة والتعبد لها، فالأسطورة والحالة هذه هي التفكير في القوى البدائية الفاعلة الغائية، وراء هذا المظهر المبتدئ للعالم، وكيفية عمل هذه القوى وتأثيرها وارتباطها مع عالما، ولهذا كله يكاد الباحثون يجمعون على أن الأسطورة كانت كل شيء بالنسبة للإنسان القديم أو البدائي، كل تأملاته وحكمته ومنطقه وأسلوبه في الكشف والمعرفة ووضع نظام مفهوم ومعقول للوجود، يقتنع به هذا الإنسان ويجد مكانه الحقيقي ضمنه، ودوره الفعال فيه، أنها الإطار الأسبق للتفكير الإنساني المبدع الخلاق، الذي قادنا على طول الطريق الشاقة التي انتهت بالعلوم الحديثة، والمنجزات التي تفخر بها حضارتنا القديمة، أنها أداة الإنسان الأقدم في التفسير والتعليل، كانت أبه وشعره وقلبه، كما كانت شرعته وعرفه وقانونه.^(١)

وقد ورد مصطلح الأساطير في القرآن الكريم مرتبطا بالتصورات الدينية الوثنية، وليس بمعنى الأباطيل والخرافات والأكاذيب، كما فهم بعض المفسرين المتأخرين، وكما أصبح دارجا في الاستعمال اللغوي المسائد الذي يشير إلى الأسطورة بمعنى مالا وجود له في الواقع، رغم أن الجذر اللغوي للكلمة يشير إلى معناها الصحيح فالفعل الثلاثي "سطر" يشير إلى معنى الاعتقاد والنص والتأليف، الذي يقود إلى التدين والتسطير والنقش، ويشير السياق القرآني إلى أن أساطير الأولين كانت تتلى على الناس أيضا بمعنى تداولها شفاهيا. وقد وردت كلمة أساطير في القرآن الكريم بصيغة الجمع دائما وفي السور المكية وحدها، أو في السنوات الأولى لنشر الدعوة المحمدية، وفي

مواجهة المعتقدات الجاهلية الوثنية. قال تعالى: "وقلوا أساطير الأولين اكتتبها، فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً". وقد سبقت الإشارة إلى قصة النضر بن الحارث وما كان يحدث به سادة قريش من أساطير القوس والأسم القديمة.. فالأسطورة في المفهوم القرآني، تشير إلى المعتقدات الدينية والثقافية للأزمان الغابرة والأسم البائدة، والتي تم تدوينها -تسطيرها- لهدف ديني وثقافي، ولتصبح نصاً مقدساً عند الشعوب السابقة، وأن كان الأصل فيها التداول الشفاهي، أثناء الطقوس والشعائر، فالشفاهية هنا لا تتناقض مع الكتابية.

وقد استخدم المشركون مصطلح الأساطير في حربهم الفكرية والدينية ضد القرآن الكريم بمعنى سلبي، بمعنى الأحاديث الباطلة، والافواه التي تنتمي إلى زخرف القول. وقد تنبى المفسرون وعلماء اللغة، بعد ذلك، هذا المعنى، فأصبحت الأسطورة عندهم، هي القصة الدينية التي لا أصل لها من وحى أو خلافة، وهي نصوص كتابية أو شفاهية ذات لغة شعرية منمقة وزخرفة، تنسب إلى الإبداع الجماعي، الذي نقلها عن أحاديث الأولين وخرافاتهم، أو هي سجع الكهان كما يرى بعض المفسرين. ولكن ما إن اطمأن العرب إلى صدق الرسالة المحمدية، حتى اختفى مصطلح الأساطير من جميع السور المدنية بلا استثناء، وأصبح القرآن الكريم كتاب الله المنزل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، وبات دين الأبناء ومعتقدات الأجداد هي (أساطير الأولين) بطوابعها الوثنية وقواحبها القصصية، فقد كانت معظم المعتقدات والمعارف الجاهلية مصاغة صياغة قصصية. وبصرف النظر عن المحتوى

العقائدي أو الدلالي للأساطير، فإن الذي يعنينا هو تأكيد القدماء على جانبها الحكائي أو إطارها القصصي. باعتباره الجانب الحي الباقي من الأسطورة، حيث تموت وظائفها الاعتقادية والدينية والمعرفية^(٢١).

وقد وقف علماء الحديث، ورواة الأخبار، والفقهاء المسلمون في عصر التنوين موقفاً متشدداً من الأساطير العربية القديمة، بدافع من التحرج والتورع عن روايتها، وترديدتها أو تنوينها، اللهم إلا عند ضرورات قصوى، مثل شرح شعيرة إسلامية، أو بيت من الشعر، أو مسألة بلاغية، رغم أن التنوين تم بعد استقرار الدين، وبعد عصر الفتوحات الكبرى. وعندما سجل محمد بن اسحق أول رواية السيرة النبوية، بعض هذه الأساطير، جاء ابن هشام فاستبعد هذه المادة الأسطورية. ومن المؤكد أن معظم التراث الأسطوري العربي قد ضاع فيما ضاع من التراث الأدبي العربي السابق على الإسلام، بعد أن مر في عصر التنوين بالمصفاة الإسلامية الدينية والثقافية، وإن تسربت بعض هذه المادة الأسطورية إلى كتب الإسرائيليات والكتب التاريخية الأولى، وموسوعات الأدب العام المبكرة و"ضاع على العرب علم غزير" على حد تعبير الأصمعي الراوية المعروف، لكن هذا الأمر لم يقعد الباحثين المعاصرين عن التنقيب والبحث عن بقايا المادة الأسطورية في المصادر القديمة .



٢١: التراث القصصي في الأدب العربي د. محمد رجب النجار.

(٤)

بدايات

القصاص الدينى الإسلامى

يعرف القصص الديني الإسلامي في التراث العربي،
اختصاراً، بـ "القصص المسجدي" لأنه نشأ ونما في جانبه
الرسمي والشعبي، فوق منابر المساجد ابتداء من العصر النبوي،
فالعصر الراشدي إلى العصر التركي العثماني الذي شهد هو
والعصر المملوكي إنتاجاً غزيراً شعراً ونثراً في القصص الديني
الإسلامي، وخاصة فيما يتصل بالمسيرة النبوية.
"وهذا يعني أن للقصص الإسلامي تاريخاً طويلاً، تفرع فيه
وتشعب، وتعدلت فيه وظائفه وتبدلت، وانقسمت السلطات بشأنه
وتفرقت.. لكنه ظل صامداً في جانبه الرسمي والشعبي: الرسمي
تحميه الدولة، والفقهاء، دون أن ينجح ابتداء من القرن الثاني
(الهجري) في أن يكون له جمهوره، لما الشعبي فقد نما وتطور،
فنثراً وبثاً ووظيفية، حتى استأثر بجمهور المسلمين، برغم
الحرب الشعواء التي شنها عليه النظام، والفقهاء، ورجال الحسبة
(المحتشبون) على مر العصور.. لقد كان اقرب إلى نفوس
المستمعين، من حيث موضوعه وقضاياها ومضامينه، كما كان
اقرب إليهم من حيث جمالياته السردية، وسبقية الأداء
القصصي الشفاهي لقصاصي العامة. (التراث القصص في
الادب العربي - د. محمد رجب النجار).

ولعل الديانة اليهودية هي أبرز الديانات التوحيدية اختلافاً

بالسرد القصصى. فقد ورثت أسفار العهد القديم (التوراة) للتراث القصصى للشعوب التى إحتك بها العبريون كالمصريين، والبابليين، والسومريين، والكنعانيين، منذ عصر الأسطورة التى كانت الإطار الأقدم والمحبيب لسرد القصص المقدسة عند هذه الشعوب، والتى كانت تحتوى داخلها (الأسطورة) على المعتقدات البدائية الدينية وعلى خبرات الشعوب القديمة فى المعرفة، ثم جاء الإنجيل ليورث ذلك التقليد الدينى اليهودى، فى الاعتماد على السرد القصصى، فى بث تعاليمه وأفعاله الروحية. ثم ورث القرآن الكريم، بإبداعه الخاص، والذى لم تكن القصة الدينية فيه، مقصودة لذاتها، وإنما لوظيفتها الدينية والتربوية، ورث القصص الدينى الذى عرفه أهل الكتاب قبل الإسلام.

لقد سمح النبى صلى الله عليه وسلم لبعض صحابته برواية بعض القصص الدينى القرآنى فى مسجده فى المدينة، باعتبار هذه القصص من القصص الحق، لا قصص الأسفار والخرافات التى كان بعض العرب يقصصها ليستأنس بها الناس، وكان الصحابى "عميم الدارى" أول قاص فى الإسلام يقص على الناس القصص الدينى بعد وفاة الرسول، ثم كان "عبد الله بن عمرو" على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنهم.

ثم ارتبط القصص الدينى القرآنى، بعد ذلك، بالوعظ المسجدى، حيث أصبح الهدف من السرد القصص الفنى هو "القصص والوعظ والتذكير" ويقول ابن الجوزى أن للقصص الدينى ثلاثة أسماء هي: قصص - تذكير - وعظ. فالقاص هو الذى يتبع القصة الماضية بالحكاية عنها، وشرحها، وذلك هو القصص،

وهو في الغالب، ممن يروى عن أخبار الأولين. لأن في إيراد أخبار الأولين عبرة لمن يعتبر، وعظة لمزدرج، واقتداء بصواب لمتبع.. وأما التذكير: فهو تعريف الخلق نعم الخالق عليهم، وحثهم على شكر نعمته، وتحذيرهم من مخالفة أوامره ونواهيه. وأما الوعظ فهو: تخويف يرق له القلب. وقد أصبح اسم القاص يجمع بين الصفات الثلاثة. وقد أمر القرآن الكريم بهذا كله، قال تعالى: "لَقَصَصَ الْقَصَصَ" وقال تعالى "فَعِظْهُمْ" وقال تعالى: وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين".

ولم يقتصر القصص القرآني، على الوظيفة التذكيرية والوعظية وحدهما في عصر الخلفاء الراشدين بل أنه أيضا خرج من حلقات الوعظ والتذكير في المسجد ليرافق الجيوش في فتوحاتها الإسلامية، حيث أصبحت هناك حاجة إلى هؤلاء القصاص لتثبيت القلوب، وشحذ الهمم، فكان القصاص المصاحب لجيش الفتح يحث المجاهدين على الثبات والاستبسال، كما يوبخ من ترأوده نفسه على النكوص والتراجع وكان طبيعيا أن تطفئ الوظيفة التحريضية على قصص تلك المرحلة، قصص الفتوحات، فلما انتهى دورهم بتوقف قصص الفتوحات، عادوا إلى أوطانهم، أو استقروا في الأمصار الجديدة يواصلون القصص، وانتهى بهم المطاف إلى أن أصبحوا قصاصا محترفين، واصلوا دورهم القصصى لغايات دينية كما كان أمرهم من قبل.



صورة القاص في التراث

كان للعامة قصاصهم وواعظهم، كما كان للخاصة أئمة، وللخاصة السيق في خلق وظيفه القاص، الواعظ، المذكور.. ثم شاركوا العامة بعد ذلك مجالسهم وحلقات قصاصيهم، خاصة إذا كان صاحب المجلس من سادات القصاص والمكبرين. لكن هذه المجالس تحولت رويدا رويدا إلى مجالس للعامة، فرفضوا عليها تقاليدهم الخاصة، ولم يعد المحدث للقاص فيها من السادة، بل أصبح واحدا من العامة، يتخذ من القص مهنة يعيش منها، وأصبحت تلك المجالس أقرب ما تكون إلى حلقات القصص الشعبي، حيث يقتصر روادها على العامة والنساء، وحيث تحول القاص إلى ما يشبه الممثل المسرحي في عصرنا ورغم أن الفقهاء وعلماء الخاصة استكروا هذا النوع من القصص الشعبي الديني، إلا أن الجمهور تعلق بهذا اللون من

القصص، الذي رأى فيه نوعاً من الأداء اللغوي الشفاهي، يخاطب عند هذا الجمهور المحروم عاطفته الدينية والفنية معاً، وكان الفقهاء قد حددوا الشروط التي يجب أن تتوافر في القاص بـ:

- حفظه للحديث النبوي ومعرفة بصحيحه من سقيم معرفته بتاريخ الأمم وسير الأولين.
- حفظه لأخبار الزهاد والمتقين فقهه في الدين فصاحته لسانه ومعرفة باللغة العربية وعلومها. إضافة إلى السلوك القويم، وتنزهه عن النفاق وأكل أموال الناس بالباطل، وتجنبه للعوام والمزاح معهم، ولا يرى إلا في ساعة وعظه حتى يظل مؤثراً فيهم، مهيباً بينهم، فإنه متى خالطهم أو مزحهم ذهب هيئته من القلوب.. ومتى كان القاص عالماً بتفسير القرآن والحديث وسير السلف والفقهاء عرف الجادة ولم تخف عليه بدعة من سنة، ودله علمه على حسن القصد وصحة النية، حسبما يقول ابن الجوزي، الذي يستمر في رسم الصورة المثالية للواعظ أو القاص لو المذكور، من وجهة نظر الخاصة فينبغي على الواعظ أن يحصر قصصه في إطار المواعظ المرفقة والزواجر المخوفة، وأن يضمن كلامه الوعد والوعيد، والتشويق إلى الجنة والتخويف من النار، والأمر بالمحافظة على أركان الإسلام، وبر الوالدين وصلة الرحم وفعل المعروف والنهي عن المنكر، وإمساك اللسان عن فضول الكلام، وغيض البصر عن الحرام.. وليكن ميله إلى المخوفات أكثر بعد أن غلب الطمع على القلوب، ولا بأس في ينشد الأنبياء الزهنية، فإن من الشعر حكمة، ولن

يتكلم في الأصول ويترك الفروع، وأن يدعوا الناس إلى الترحم على الصحابة، ويكف نفسه عما شجر بينهم بمعنى أن يتعد عن القصص التي تصور الصراعات التي حدثت بين الصحابة فإن وعظ سلطانا تلطف غاية اللطف، فليذكر الوعظ عاما ليأخذ السلطان منه نصيبا. وقد كان في السلاطين من يواجه بالإنكار فيصبر، وليس ذلك بحرام ولكن التلطف أولى، قال عز وجل "قولوا له قولاً ليئلاً" فإن قيل: فما تقول في قوله عليه السلام: "أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر" فالجواب أنه إذا كان الجائر لا يقبل الحق جاز أن يورى عن الحق خوفا على الناس. والأفضل أن يبدأ بالحق، ومتى ما أمكن التلطف فلا وجه للعنف. [يقول عن د. محمد رجب النجار التراث القصصى].

ولكن هذه الصورة المثالية للواعظ القاص الذى هو جزء من السلطة السياسية والدينية، لم يكتب لها الانتشار كثيرا، إذ غلبت عليها الصورة الشعبية لتلك الشخصية، كتلك التى جاءت بعض الأخبار والأقوال عنها فى كتب التراث فى كتاب "البعلاء" للجاحظ، يذكر على لسان أحد المكثين [المحتالين على الرزق بالتسول]، وهى طائفة لها نواذرهما وأشعارها وأخبارها فى التراث]. أنه لو ذهب ماله لجلس قاصدا.. فالأحبة والفرة بيضاء، والخلق جهير "على الصوت سليم النطق" والسمت حسن "حسن الهيئة والمظهر" والقبول على واقع "عنده قبول وحضور كما يقال عن الممثل" أن سألت عيني الذمع أجابت "قدرة على التقمص والتمثل". ثم يضيف الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين، أن من تمام آلة القصص أن يكون القاص أصمى، ويكون شيخا،

بعيد مدى الصوت، ويرى عالم آخر أن القاص الأسمى أحسن من المبصر، حتى لا تقع عينه على مستحسّنات النساء، اللاتي يحضرن مجلسه أو يتحلقن حوله، ويحدد آخرون الهيئة التقليدية للقاص بإطالة اللحية وعظم العمامة، ليزيد من وقار نفسه في أعين من يحضر مجلسه.. وينقل ابن الجوزي في كتابه عن "القصاص والمذكرين" عن أبي الوفاء بن عقيل* أن على القصاص أن يلبس متوسط الثياب، لكي يقتدى به، فكل قول زي، "وكما لا يحسن الغناء إلا من الجوارى الخرد، ولا الغزل إلا من عاشق، ولا النوح إلا من ثاكل، ولا ذكر الأوطان إلا من غريب، فكذا لا يقبل الوعظ إلا من متكشف مترهّد متورّع، من وراء مدرعة صوف، وتحافة جسم، وقلة قوت، اشتغالا عن البدن بقضائل النفس كالطبيب الظاهر الحمية، فأما من يخرج بطينا فاخر الثياب، مداخلًا للسلطين، فكيف تستجيب له القلوب؟ إنما يسمع من السمار، ولربما كانت الصور والسمات "المظهر والهيئة" تؤثر أكثر من الألفاظ، وقد قيل: "من لم تنفعك رويته لا تنفعك موعظته".. ويحذر من اللغات الحسنة، والأتيان بالحركات والإشارات الأثيقة، لأنه "مضى كان القاص أو الواعظ شابا متزينا للنساء في ثيابه وهيئته، كثير الأشعار والحركات والإشارات، ويجلس مجلسه النساء فيحذر منه، وهذا منكر يجب منعه، فإن الفساد فيه أكثر من الصلاح، ولا ينبغي أن يعظ إلا من ظاهر الورع وهيئته السكينة والوقار، وزيه زي الصالحين".



لقد تحولت صورة القاص*الواعظ والمذكر، كما تحول مجلسه،

عندما أصبح القاص وجمهوره من العامة، فلم يكن يميز واعظ العامة عن جمهوره إلا قليل من العلم الديني، وكثير من المرويات الشفاهية الشعبية عن الأنبياء والأولياء والمتصوفة. ويسرد الدكتور محمد رجب النجار في كتابه المهم "التراث القصصي في الأدب العربي" استناداً إلى مصادر تراثية وخاصة ما كتبه ابن الجوزي في كتابه "القصص والمذكرين" يسرد تفاصيل ما حدث لشخصية القاص وللمجالس القصص الدينية الشعبية، من تغيرات جعلتها تقترب من حلقات القرعة المسرحية التي عرفتها مجتمعات عربية كثيرة، حتى عهد قريب جداً، مثلما كان يحدث في موالد وأسواق المغرب العربي.

قمع بروز ظاهرة قصص العامة في العصر المملوكي، شرع العوام في تزيين المنبر الذي كان يجلس عليه القاص بالخرق الملونة، وذلك لإضفاء جو خاص على المكان، هو جو الحزن، والخشوع، والتخويف والتحذير، بحيث يكون الجو مناسباً لما يقصه القاص من قصص ديني يدور حول هذه الموضوعات، وعندما استكثر الفقهاء عملية تزيين المنبر، نزل القصص عنه وجلسوا على كراسي خاصة معدة لهم، وأطلق على هؤلاء القصص لقب "أصحاب الكراسي" ولم يتخل القاص أو جمهوره عن صنع ديكور خاص، بقدر ما سمح به خيالهم، فعلقوا خلف كرسي القاص سجادة صلاة مرسوم عليها صورة الكعبة، أو المسجد النبوي وهذا من جنس ستر الجدران بالاثواب، فيوجب في القلوب هيبة للقاتل لكثرة من هيبة من هو على خشبة معرأة (عارية من الزينة).

وكان القاص يقوم في البداية بما يشبه عملية الاندماج المسرحي، عن طريق الصمت الطويل، وتقمص حالة الخاشع الزاهد العابد، ويقدر قناعة الجمهور بصديق اندماج القاص، بقدر نجاحه في الوصول إلى وجدانهم، ولم يكن الأمر يخلو بالطبع من المتصنعين، اللذين يصف ابن الجوزي أحدهم بأنه "كان إذا صعد المنبر، غطى وجهه وارْتعد إلى أن يفرغ القراء من قراءة القرآن الكريم، ويفعل هذا دائماً تصنعاً".

وكان المجلس يبدأ بصعود القاص إلى المنبر أو الكرسي، فيبدأ مساعده من قراء القرآن الكريم في تحضير الجمهور، بقراءات يصفها ابن الجوزي بالألحان الخارجة عن الحد المألوف، وقد جعلوها كالغناء، الذي يوقع عليه وبه كأنه حذاء أو غناء، وقد أنكر الفقهاء عليهم هذه الطريقة في القراءة لأنها تطوي ونهيج الطباع" ورغم استنكار الفقهاء لهذه الطريقة في قراءة القرآن، إلا أن العلامة كانوا يستجيبون لها، ويفتتلون بها، وتستثير فيهم عواطفهم الدينية. لقد كانت تلك الطريقة هي الشائعة والمائدة في مجالس القصاص، ويشارك فيها عدد من القراء في صوت واحد، وكانهم "كورس" يمدح الجمهور لسماع ما سيقوله القاص. فإذا ما انتهى القراء من الترتيل الجماعي، بدأ القاص يظهر، ليندق مجلسه، ويعتليه صعوداً ونزولاً، موقفاً بقدمه. فإذا ما بدأ بعد حمد الله والدعاء للمؤمنين في سرد قصصه الديني بطريقة أدائية مؤثرة، فيرفع صوته حيناً، ويخفضه حيناً، ويلون أدائه للكلمات حسب معانيها، ثم يندمج أكثر فتحمر عيناه، ويشد هياجه، وكأنه منذر جيش يقول: "صبيحكم أو مساكم" ومع ارتفاع

صوته واشتداد غضبه، يبدأ في البكاء كمظهر من مظاهر الزهد الذي يملأ قلوب المتعبدين.. وقد يستعين بما يضيف على وجه الاصفرار، أو يستخدم بعض الحيل التي تساعد على البكاء. أو يستخدم سيفاً أو عصاً لتجسيد ما يقول وتعميق معناه عند المستمعين، وقد يتحرك بعض الحركات التي تناسب ما يليق به من أسجاع أو أشعار فيطرب الجمهور أي طرب، ويعمد إلى اشتداد أشعار الغزل مع تصفيق يديه وإيقاع برجله، حتى إذا أراد أن يضحك جمهوره لضحكهم، وإذا أراد أن يبكىهم أبكاهم!

وكان بعض النابغين من هؤلاء القصاص يتقلون بين المدن والأقاليم الإسلامية يعرضون مواهبهم، كما يفعل الشعراء مقابل منح وهدايا عظيمة، تتراوح كما يقدرها ابن الجوزي بين ألف دينار وسبعة آلاف دينار.. وقد كثر هذا النوع من القصاص في القرن السادس الهجري، وهو القرن الذي عاش فيه ابن الجوزي، الذي يقول أنهم جعلوا القصص معاشاً يستمنحون به الأمراء والظلمة والأخذ من أصحاب المكوس (الضرائب والجمارك) والتكسب في البلدان.

أما قصاص العامة، فقد كانوا بالطبع يحصلون على رزقهم من جمهورهم، ويقتسم ما يجمعه من جمهوره الفقير مع القراء الذين يساعدونه بتلاوتهم التي تمهد لقصصه.

لقد وقف فقهاء وعلماء القرن السادس، وما بعده، من هذه الظاهرة الإنسانية المأساوية الجماعية، بحق، كما يصفها الدكتور النجار، موافقاً لم يتعد الظاهر والخارج، فلم يروا فيها إلا يدعة تسببت في اختلاط النساء بالرجال، ولم ينتقلوا إلى ما وراء

الظاهر إلى الأسباب السياسية والاجتماعية والاقتصادية، التي جعلت "العامة" من الرجال والنساء يتشدون السلوى في هذه المجالس، وجعلتهم يمزجون بين تقاليدهم الشعبية وبين القيم الدينية، وبين فنونهم المقتدة والمتجاهلة، والتي ينظر إليها الخاصة من عل، وبين هذه المجالس القصصية الدينية التي تتيح لهم تنقيصا أسبوعيا أو نصف أسبوعي عن توتراتهم وإحباطاتهم، ولا تزال تلك الظاهرة مستمرة في عصرنا، بصورة أو أخرى، في حلقات الذكر للصوفى، أو الزار، أو احتفالات الموالد وهو الأمر الذي لفت أنظار بعض الباحثين في العلوم الإنسانية لدراسة هذه الظاهرة للوصول إلى أسبابها العميقة، التي لا تجدى في منعها الأوامر الفقهيّة، أو الإدارية وحدها!



القصص الديني الإسلامي والسياسة

يقول بعض المؤرخين القدامى أن أول من وضع القصص في الإسلام هم "الحرورية" من الخوارج، بمعنى أنهم أول من بدل القصص الديني، وزاد فيه، لتأييد وجهة نظرهم الدينية والفكرية، وهو موقف مفهوم في ظل الصراع الفكري والديني المتساوي الذي اندلع بين أنصار الإمام علي وأنصار معاوية بن أبي سفيان، فيما عرف في التاريخ الإسلامي بـ "الفتنة الكبرى" والذي انتهى بسيطرة الأمويين على الحكم، وهزيمة شيعة علي، وخروج الحرورية الخوارج على الجميع.

وقد أدرك الخليفة معاوية مبكراً السحر الإعلامي للقصص الديني، وقوة تأثيره في نفوس العامة فبعث في طلب القصص، وجمعهم إليه، وأجرى عليهم الرواتب من بيت المال، ثم أوعز إلى قصاصيه، وقد أصبحوا موظفين في الدولة، في مصر والشام

بالدعاء له بعد صلاة الصبح والعشاء، فكان القصص يجلس بعد انتهاء الإمام من صلاة الصبح، فيذكر الله ويحمده، ويصلي على نبيه، ثم يدعو للخليفة ولأهله وجنوده بالنصر والتأييد، ويدعو على من يحاربه وعلى الكفار عامة^١. وكان بعض القصص يستخدم يديه في تأكيد وشرح ما يقصه، ومن هؤلاء سليم بن عزي الذي عين كأول قاص بمصر عام ٣٨ هـ.

وبهذا انقسم القصص الديني الإسلامي إلى قسمين يؤلفه الخاصة لأداء وظيفة سياسية وإعلامية لصالح الحكم القائم، وقصص يرويه قصاص العامة للوعظ والتعليم حسبة لوجه الله واحتسابا. أما قصاص الخاصة فكان يحصل على راتبه الرسمي من بيت المال، ثم ظهر نوع ثالث من القصص. بعد القرن الهجري الأول. كالحسن البصري وأبي عبد الله الجوني، ومطرف بن عبد الله، وصالح المري. لقد أعاد هؤلاء القصص المورعون للقصص الديني وظيفته التذكيرية والتحذيرية، بعد أن هالهم ما أدى إليه الصراع السياسي بين الفرق الإسلامية من مأس وخروج عن الدين الصحيح، وأخذ بهم الخوف من الذنوب الجمعية إلى الرفض المبرر للحال الإسلامي العام وبصف الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" بعض هؤلاء القصص كصالح المري بأنه لم يكن قاصا، بل كان نذير قوم، كما يصف مجلسه: بأنه كان إذا أخذ في القص بدا وكأنه رجل مذعور، يفرعك أمره من حزنه وكثرة بكائه، كأنه تكلّي!

وفي العصر العباسي، ومع ظهور الصراع العربي الفارسي، اختلف القصص الفرس إلى القصص الديني الإسلامي، للكثير

من الأساطير والخرافات الفارسية والأحاديث الكاذبة. ويذكر الجاحظ براعتهم في القصص، وكيف كانوا يقصون بالعربية والفارسية معا في المجلس الواحد فيفهم عنهم العربى والفارسى، ومع الازدهار الحضارى وما صاحبه من ترف مادى تمتع به الخلفاء والأمراء ومن عاش حولهم من العلماء والأدباء من فرس وعرب فى القرنين الثالى والثالث الهجريين، ومع الثروات الكبيرة التى تدفقت على تجار العاصمة بغداد والحواضر الأخرى، وازدياد شفاء هلبية المسلمين ومعاناتهم فى حياتهم اليومية، وما صاحب هذه المعاناة وتنج عنها من هبات وثورات للامة والفقراء، انعكس كل ذلك على القصص الدينى فى الطرقات والمساجد والأسواق، وظهر ما عرف بقصص الزهد وأشعار الزهاد والمتسكين من المتصوفة والزهاد، وقد تبلور هذا التيار الزهدى فى البصرة أكبر ميناء تجارى فى العالم لئذلك. وقد هذا التيار الزهدى حجة الإسلام الغزالى، ومالك بن دينار الذى كان شعاره: "كفى بالمرء خيانة أن يكون أمينا للخونة". وفى القرنين الرابع والخامس الهجريين فتح باب التأليف فى القصص الدينى الإسلامى على مصراعيه لتتدخل منه الاسرائيليات بدون حواجز بصاحبها أخبار وقصص منسوبة للجاهلية وللأمم القديمة وأحاديث وخرافات الشعوب المجاورة، لينسج من هذا كله جنة أخرى تقوم بدور التعويض للبائسين عن شظف حياتهم، وحرمانهم من ضرورات الحياة، جنة يصنعها خيال القصاص لإشباع حرمان جمهورهم الجنى والمادى، لا علاقة لها بالجنة التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم وفى

الأحاديث النبوية الصحيحة، ولكنها مستمدة بخيال مبالغ فيه إلى حد الهوس، مما يسمعه ويراه العامة من ترف الأغنياء السفهاء، ومتهمهم الحسية بالنساء والخمر والطعام، ومن حرمان العامة من كل هذه النعم الدنيوية.

وكان من الطبيعي أن يستجيب العامة لهذه القصص الخيالية وأن ينشغلوا بها ويقائلوها انشغالا عظيما، وهو الأمر الذي استفز الفقهاء والمخلصين من علماء الدين، فشنوا على القصص وجمهورهم حملات شعواء، وجعلوا الخلفاء يصدرون مراسيم متعددة تنهى عن حضور القصص، وتولى المحققون مراقبة القصص في المساجد والأسواق والطرق باعتمادهم من أصحاب الصنائع الفاسدة، الذين أقسوا على الناس حياتهم ولعل في تحول موقف الإمام أحمد بن حنبل من القصص والقصص ما يلقي الضوء على أثر القصص الجماهيري في ذلك الوقت، فقد كان ابن حنبل في البداية يرى أن الناس في أمس الحاجة إلى القاص الصدوق، فأصبح يراهم من أكذب الناس، وأن غايتهم هي نهب أموال الناس بالباطل، ويفسر ابن الجوزي موقف الفقهاء من القصص ودمهم واستعداد الحكام عليهم، بأنهم يناحزون لذكر القصص دون ذكر العلم المفيد، ثم اتهم يخلطون فيما يأتون به من قصص وأحاديث، وأكثر ما يعتمدون عليه في قصصهم من المحال. ويضرب الدكتور محمد رجب النجار مثلا على ما جاء به القصص في ذلك العصر في موضوعين كانا أثيرين عندهم، هما قصة الإسراء والمعراج، والثاني هو مرويات الشيعة عن آل البيت رضوان الله عليهم. فقد وجد القصص في

قصة الإسراء والمعراج مجالا خصبا لخيالاتهم حتى قال الإمام الذهبي فيه: "إنه أصبح أشبه بأحداث القصص" وليس مجرد معجزة نبوية محددة الملامح في القرآن والسنة. أما مرويات الشيعة عن آل البيت، وخاصة فيما يتصل بمقتل الإمام الحسين رضوان الله عليه، فقد لعب خيالهم المشوب بالعاطفة المشبوبة دورا هائلا في التأليف القصصي الخيالي على حساب الوقائع التاريخية حتى "اختفى الأصل وأضيف إليه من مبالغات لعب الحب المفرط لآل البيت والخيال فيها دورا لا يمكن تصديقه".



القصص الديني بين العامة والخاصة

يصف ابن جبير في رحلته مجلساً من مجالس ابن الجوزي القصصية الوعظية، بأنه كان أثناء هذه المجالس ينشد من أشعار النسيب، مبرحة التشويق، بديعة الترفيق، تشعل القلوب وجداً، ويعود موضوعها زهداً، وكان آخر ما أنشده من ذلك وقد أخذ المجلس مأخذه من الاحترام، وأصابته المقاتل سهام ذلك الكلام! أين فؤادي لذابه السوجد وأين قلبي، فما صحتي بعد؟ يا سعد زمني جوي بذكرهم بالله قل لي، فديت يا سعد! ولم يزل يرددّها والانفعال قد أثر فيه والمدايح تكاد تنزع خروج الكلام من فيه، إلى أن خاف الأفحام، فابتدر القيام، ولزل عن المنبر دهشاً عجلاً، وقد إبطر القلوب وجلاً، وترك الناس على آخر من الجمر، يشيعونه بالمدايح الحمر، فمن معطن بالانتحاب، ومن متعطر بالتراب. ويعلق الدكتور النجار على

وصف ابن جبير بقوله: "فما بالنّا بقصاص العامة الذين تجاهلهم التاريخ، وكانوا أقرب إلى العامة، لغة ومزاجاً وفكراً وسلوكاً وإبداعاً؟" لقد كان قصص العامة تقيضاً لقصاص الخاصة، فقد كانت قصص الخاصة يؤدّيها قصاص رسميون هم جزء من الجهاز الإعلامي والفكري للحكم، وكان جمهورهم هم الفقهاء ورجال الدولة، وكانت قصصهم بالتأكيد تدعم موقف الحكام وتبرير سياستهم، فقد كان الفن القصصيّ فيها يحتل مكانة هامشية، لأن الهدف ليس الامتاع الفني ولكن التفسير والتبرير الوعظي لسياسة الحكم، أما قصص العامة فقد اعتبرها الفقهاء من البدع المكروهة لمن يقولها ومن يستمع إليها، وقصاص العامة كان يمارس وظيفته دون إذن من الأمير، فلا هو أمير ولا يقص بأسر من الأمير، ولكنه يحتل بالقصاص من أجل العيش، فهو إلى المكدين "المتسولين" أقرب منه إلى القصاص والوعاظ الرسميين، أما جمهوره فهو من عامة الناس دائماً.

ولكن قصص العامة هذه، كما تقول الدكتورة وديعة طه النجم هي في الحق أقرب للصنفين إلى القصص الفني الذي نعني بدراسته من الناحية الأدبية، لأنها قد تميزت بأعاجيبها وإخيلتها التي ترضى مستوى الخيال الطليق الذي يتمتع به العامة، والذي لا تحده غاية معينة، ولا منطق عقلي في كثير من الأحيان.. وقد لا نفوت الصواب إذا قلنا أن هذا القصص قصص العامة هو الذي مهد السبيل إلى استقلال القصة شيئاً فشيئاً عن المجال الديني أو العلمي، فجعلها تقوم بنفسها، وتنتقل (شفاهياً) ثم تدون على أيدي مؤلفين قاموا بتدوينها (كتابة) كالذين سجلوا لنا ألف

ليلة وليلة، أو السير والملاحم الشعبية، التي تمتاز بالخيال
الخصب الذي لا يرتبط إلا قليلا، بالواقع، كما أن قصص العامة
الديني هو الذي مهد لظهور فن فريد في الأدب العربي هو فن
المقامة.

فالقصاصون الذين اهتموا بالوعظ الديني في بداية الأمر، ما
ليثوا أن صاروا ينقلون إلى مجالسهم، القصص الشعبي، فكان
بعضهم يؤثر عواطف الناس بسرد قصص البطولة أو قصص
الحب الشائعة على السنة الرواة، ويلبسها بالغاية الوعظية أحيانا،
وقد نهى ابن الجوزي القصاص عن ذكر قصص الحب والعشق
الديني، وقصص سعدى ولبنى في العشق الصوفي، وقصة
موسى والحب، وقصة يوسف وزليخا، على سبيل المثال، كما
نهى عن قيام القصاص بالتشخيص والغناء أو تلحين القرآن، أو
إيراد النوازل الفكاهية، وغيرها مما كان يلجأ إليه القصاص من
فتون السرد التي يرفهون بها عن العامة في مجالسهم القصصية.
لكن هذه النواهي والأوامر ذهبت إدراج الرياح، فقد كانت
مكانة القصاص، وخاصة الموهوبين منهم، عند جمهورهم أقوى
وأشد تأثيرا من نواهي الوعاظ والفقهاء الرسميين، ومن مراسيم
الحكام، ورقابة المحتسبين، لقد اختلط في مجالس الوعاظ
والمذكرين الشعبيين الذين بالفن، لتصبح بعض هذه المجالس
أقرب إلى بعض أنواع العروض المسرحي، في زماننا وخاصة
بعد انصراف الخاصة عن هذه المجالس وتركها لجهال
القصاص، على حد تعبير ابن الجوزي، فلم يعد يحضرها إلا
"العوام والنساء" أي أنها قد خرجت من رقابة أهل الحكم والفقهاء

والرسميين، ولم تلتزم بتعليماتهم التي تطلب أن يضرب بين الرجال والنساء الذين يحضرون مجالس الوعظ القصصى حجاباً، وأن يجعل لهم الواعظ من وعظه نصيباً فيعظهن ويخوفهن من تضييع حق الزوج ومن التفريط في الصلاة، وينهاهن عن التبرج والخروج، ويذكر لهن ما ورد في ذلك من أحاديث.. كما حذر الفقهاء أيضاً من أن يمضى للقصاص أكثر مجلسه في ذكر العشق والمحبة وأنشاد أشعار الغزل التي يحتوى على وصف المعشوق وجماله، وشكوى ألم الفراق، مما يعنى أن هذا كان يحدث ولذلك نهى الفقهاء عنه، كما يعنى أن هذه المجالس القصصية الشعبية قد أصبح لها تقاليداً دينية والفنية الخاصة، التي أملت لها الاحتياجات النفسية والفكرية لعامة الناس، الذين لم يعابوا بتعالى الوعظ الرسميين عليهم، ومضوا إلى ما يريحون ويريدون من الوعظ والفص الدينى، كما يفهمونه، ويعبر ابن الجوزى عن نظرته الخاصة من العلماء والوعاظ الرسميين إلى هذه المجالس الوعظية الشعبية، بقوله: "ومعلوم أن عامة الحاضرين اجلاف، بواطنهم مشحونة بالهوى ممثلة بحب الصور، ولا تخلو المجالس من النساء المستحسنات، ومثل هذا يحرك ما فى النفوس، فإن كان القاص شاباً مستحسناً قليل الدين وقع الحديث معه".

لم ينشغل الفقهاء إلا بأمر حضور النساء مع الرجال، ولم ينفذوا إلى ما يعنيه هذا الإقبال الهستبرى على مجالس الوعظ الشعبية، من تفتيش وتعميضى عن الإحباط الاقتصادى والسياسى والاجتماعى. لقد كانت تلك المجالس تتحول إلى ما يشبه حلقات

الذراويش المتصوفة، أو حفلات الزار في بعض البلاد العربية،
ومن يقرأ وصف ابن الجوزي لهذه المجالس، لابد وان تستوقفه
هذه الظاهرة التي تحتاج تحليلاً اجتماعياً ونفسياً.. فقد كانت
بعض النساء من الحاضرات تصبح كصياح الحامل عند الولادة!
وربما رمت أزارها وقامت وقد انتابها الوجد مع استغاثة الرجال
ممن يصل إلى حالة الوجد، وعندئذ يحدث للهرج والمرج في
المجلس، كلما زادهم الواعظ من جرعة التخويف وتصوير
العقاب، مما يوجب التلف في قلوب الجمهور.



(٥)

الرؤية الشعبية للسيرة النبوية

لم تحفظ لنا كتب السيرة الكثير من التفاصيل عن حياة النبي عليه الصلاة والسلام قبل نزول الوحي، وإن كان القرآن الكريم قد رسم الخطوط العامة لشخصيته النبوية كرسول لله وخاتم للنبیین، بعث بين العرب بلسانهم، لينذرهم ويذكيرهم، ولتخرج رسالته من المحيط العربي إلى العالم كافة. يخاطب الله نبيه بقوله: "ألم يجدك يتيماً فآوى.. ووجدك ضالاً فهدى. ووجدك عائلاً فأغنى" وسيضيف كتاب السيرة والمؤرخون والخيال الشعبي الكثير من الملامح والتفاصيل الغنية، التي تجسد تلك العلاقة المقدسة والخاصة بين المسلمين ونبيهم العظيم، وستنتهي بعض هذه الإضافات إلى عالم التاريخ وحقائقه ووقائعها، وستنتهي بعضها الآخر إلى عالم الأدب والموروث الإنساني الشعبي. وسيختلف الباحثون حول هذه الإضافات القصصية، يحاكمها البعض بمقاييس مناهج المؤرخين الحديثة، وطرق أصحاب الفقه والحديث، التي وإن كانت صالحة لتنظيم حياة المسلمين في دنياهم ودينهم، إلا أنها غير قادرة على استيعاب أشواق المسلمين، على اختلاف أجيالهم وأزمانهم، ورواهم الثقافية، لشخصية النبي العظيم.

لقد حرر كثير من القصاص، والمتصوفة، والشعراء والفنانون الشعبيون، خيالهم الخصب من أوامر ونواهي الفقهاء

والمؤرخين، الملتزمين بالحقائق الجافة، والتفسيرات الملتصقة بالظاهر والمفتقدة لغنى الخيال الإنساني، وضرورته للحياة الروحية والنفسية للمسلمين، ورغبتهم المشروعة في التوحد مع شخصية نببيهم من خلال موروثهم الشعبي، وخيالهم الغنى، كرمز للخير الأسنى وللتمثل الأعلى.

وتعكس الصياغة الشعبية للسيرة النبوية الكثير من هذه الرؤى والاتواق الروحية والغنية، وقد اكتملت هذه السير النبوية الشعبية في زمن متأخر ولكنها أصبحت ومنذ ذلك الوقت، جزءا من الموروث الديني الشعبي للمسلمين، رغم أن بعض الباحثين وعلماء الدين رأوا أنها قد حشيت بقصص ضعيفة السند، لا تصور المعروف من مولد الرسول وحياته في صورته

الصحيحة، كما يقول الدكتور زكي مبارك في كتابه عن "المذاهب النبوية". وقد حدث أن دعا وزير الأوقاف المصري محمد نجيب الغرابلي أهل العلم إلى وضع صيغة جديدة للمولد، يراعى فيها تحرى الأخبار الصحيحة. وقد قوبلت دعوة وزير الأوقاف هذه، بالترحيب من الهيئات العلمية والأدبية الرسمية، ولكن الدكتور طه حسين تصدى لهذه الآراء، رغم ما في هذا الموقف من حساسية، فنشر مقالا في جريدة "الوادي" ١٩٣٤/٨/١ كتب فيه ضمن ما كتب: "وأى بأس على المسلمين في أن يتحدث إليهم قصص كهذه الأحاديث الحلوة العذاب، فتنبههم بأن اسم الطير والوحش كانت تختصم بعد مولد النبي كلها يريد أن يكفله، ولكنها ردت عن هذا، لأن القضاء سبق بأن رضاع النبي سيكون إلى حليلة السعدية؟" وأى بأس على المسلمين في أى يسمعون أن

الإنس والجن والحيوان والنجوم تياشرت بمولد النبي، وأن الشجر أورق لمولده، وأن الروض ازدهى لمقدمه، وأن السماء دنت من الأرض حين مس الأرض جسمه الكريم؟ لم تصح الأحاديث بشيء من هذا، ولكن الناس يحبون أن يسمعوا هذا، ويرون في التحدث به والاستماع إليه تمجيذا للنبي الكريم، لا بأس به ولا جناح فيه. إن من فاحش الخطأ أن يضيق على الجماهير حتى في القصص البريء، إن من فساد الذوق ألا يباح للجماعات إلا الحق الذي لا حظ للخيال فيه، إن من سوء العناية بالدين أن يكف للخيال عن تأييد الدين".

وتعلق الدكتورة نبيلة إبراهيم في دراستها عن "السيرة النبوية بين التاريخ والتراث الشعبي" على رأى صيد الأدب العربي حول علاقة الخيال الشعبي بالدين والتاريخ، بأنه لو كانت الهيئات الدينية والأدبية الرسمية قد استجابت لدعوة وزير الأوقاف وألفت نص للسيرة ملتزم بالتاريخ والواقع ما التزم به الشعب، فالخيال بالنسبة للحياة الشعبية هو جوهر إبداعها الفني، وهو يوظف على نحو رائع للتعبير عن متاعبها النفسية وطموحاتها الاجتماعية وانبهاراتها الدينية.

إن تلك الأفاضل يصح التي ترد في الروايات الشعبية للسيرة النبوية، والتي تجسد رد الفعل التخيلي للجماعة الشعبية لطبيعة نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، هي من وجه آخر، تأكيداً ليقين تلك الجماعة الشعبية المسلمة أنه هو من تألفت إليه الأمم، وفراقب الجميع من أهل الكذاب مقدمه النبيل، لقد تعددت الروايات التي تنسب إلى أحبار اليهود وهنالك انحصار في التنبيه بقرب بعثة النبي

إلى قومه. ومنها تلك الرواية التي نقلها ابن هشام في السيرة عن ابن اسحق، والتي تفص قصة ذلك الحبر اليهودي الورع الذي ترك سوريا نازحاً إلى يثرب المدينة، وعندما سئل عن سبب تركه لأرض الخصب والغنى إلى أرض الصعاب والجوع؟ أجابهم بأنه يريد أن يكون في يثرب عندما يصل إليها محمد مهاجراً برسالته!



السيرة النبوية والسيرة الشعبية

للتراث الشعبي قوائمه الإبداعية الضاربة في جذور التاريخ الإنساني، حيث بدايات الإبداع الجمعي، عندما كانت النغمة والإيقاع والكلمة فنا واحدا يعكس تصورات الجماعة الشعبية عن الكون والحياة والتاريخ، عبر أشكال فنية تنوعت وتطورت من ذلك الأصل القديم، فأصبحت: أسطورة أمثلة حكاية سيرة ملحمية أو أغنية تحمل أصداء من هذا كله على المستويين الفكري والموسيقى.. وهو ما يشير إليه الدكتور عبد الحميد يونس في مقدمة كتابه "الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي" بقوله: "ولعل من المفيد ونحن نتحدث عن الأدب الشعبي ودلالاته على نفسية الجماعة، أن نستعيد نظرية الاسترجاع التي يقول بها علماء الحياة فالإنسان وهو تاج الخليقة، يحكى في نشأته ونموه وتدرج حياته، نشأة الحياة كلها على اختلاف صورها

ونموها وتدرجها، والشعب الحى أو الجماعة الحية تختزن جميع
الأنوار التى مرت بها خلال العصور والأحقاب، وما من أثر
من آثار التراث الشعبى إلا وجدنا فيه رواسب نفسية وأغلة فى
اللقم، تعود إلى عهد العشائر البدائية فى العصر الحجري وما
قبله، وهو إلى جانب الروايات العنصرية فى الآثار والنقوش،
أصدق فى الدلالة على نفسية الشعب من الوثائق والأضابير
وروايات الأخباريين وأصحاب الحوليات والتواريخ.
وشخصية النبي محمد عليه الصلاة والسلام أبرز شخصية
أساسية فى الأدب الشعبى العربى، فهي البؤرة النورانية
المباركة التى يلتقى عندها العديد من فنون الأدب الشعبى، من
سيرة، ومذاهب وأنشادات دينية، إلى أغاني الحجيج والعمل
والغزل، إلى الحكايات والقصص. وإذا كان هناك شبه إجماع
الآن بين علماء التراث الشعبى العربى، على أن السير الشعبى
العربى تكاملت وتم تدوينها فى مصر، بعد تعريب مصر
وتمصير عربها، فى القرنين الخامس والسادس الهجريين،
الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين.. فإن هذه السيرة الشعبىة
هى فى جوهرها تسجيل لصورة بطل يجسد المثل الأعلى
العربى، حيث يمتزج فيه الماثور التاريخى بالماثور الشعبى، كما
يمتزج فيه الواقع بالحلم والأسطورة، حتى قيل: "إن السيرة
الشعبية هى التاريخ ينشد على أبواب الأسطورة". وتستمد
السيرة الشعبىة تقاليداً الأولى من "المغازى" وهى الحروب التى
خاضها الرسول وأصحابه، ولتى شكلت روايتها وتدوينها السير
الأولى، بعد أن عرفت الثقافة العربىة الإسلامية تكوين مختلف

مجالات المعرفة في نهاية القرن الثاني الهجري الثامن
الميلادي.

فالسيرة إذن في تراثنا الرسمي ترتبط بالترجمة الماثورة
للنبي (سيرة ابن اسحق التي دونها ابن هشام) باعتباره البطل
العربي الأعلى، دينيا وقوميا وعسكريا، والذي تمتد سيرته من
حيث المساحة الزمنية إلى ما قبل النبوة، ثم البعثة، ثم الدعوة
والغزوات والحروب، ثم النصر، إلى نبوءة الوفاة، والوفاة ذاتها،
ثم الامتداد إلى ما بعد الوفاة واستقرار الدعوة الإسلامية " " .
والسيرة بهذا المعنى باعتبارها أول سيرة في التراث العربي
تستهدف رسم المثال والنموذج القومي (الرسول الأعظم) دينيا
وعربيا وعسكريا وأخلاقيا.

لقد استعار الإبداع الشعبي مصطلح "السيرة" بكل دلالاته من
السيرة لنبوية، باعتباره وعاء لتسجيل نموذج تاريخي بطولي
"يتغنى بمسيرة النبي عليه السلام، باعتباره نبي الأنبياء، وبطل
الأبطال" وفي هذا الإطار نفهم حرص مؤدي السيرة الشعبية في
بدايات إنشادهم الشعري، على مدح النبي عليه الصلاة والسلام،
والإشادة بصفاته العظيمة وبأهل بيته، ومعجزاته وبطولاته،
كمثال بطولي أعلى، ومؤدى السيرة الشعبية يسوق هذا المديح في
مفتتح إنشاده، لا بطريقة روتينية يكرر فيها الكلمات والعبارات،
ولكن بطريقة مبتكرة ومتجددة كل مرة، وهذه البدايات هي جزء
من السرد الشعري والتثري في السيرة، فهو يقيس الأحداث
والوقائع والبطولات والمعارك والمواقف الأخلاقية، على
مراجعياتها الأساسية، التي يؤمن بها الشاعر المنشد والجمهور

المتلقى معا، وهى السيرة النبوية.. ولتأكيد هذه المرجعية توجد السيرة الشعبية صلات بين أبطالها وبين النبي عليه الصلاة والسلام، متجاهلة الحقائق التاريخية، فالتاريخ فى الوعي الشعبى الجماعى ليس وقائع صماء منفصلة، لكنه مسيرة متصلة، لا يحكمها التسلسل والتتابع فى الزمان والمكان، ولكن يحكمها اتصال المعانى والدلالات والرسائل التى يريد المبدع الشعبى توصيلها لجمهوره، الذى شاركه عبر احقاب طويلة فى صياغة هذه السير الشعبية. ففي "سيرة عنتره" وهى القدم السير الشعبية التى وصلتنا، يفسر المؤلف المجهول واقعة تعليق "معلقة عنتره" داخل الكعبة تفسيراً مختلفاً عن تفسيرات كتب التاريخ والأدب، ويخبرنا راوى السيرة أنه بعد أن انتزع عنتره الاعتراف ببطلوته الجسدية وفروسيته، شارك فى مباراة شعرية لانتزاع الاعتراف به كشاعر، لتكتمل صورته كفارس وشاعر، وهما وجها البطلولة، كما كان العرب يفهمونها.. وتجعله السيرة يتحدث إلى الشاعر الجاهلى عروة بن الورد الصعلوك الشهير، بقول عنتره عن نفسه: "من يكون هذا المقال مقال، وهذا القتال قتال، ما يصح إلا أن يعلق له قصيدة على جدران البيت الحرام، ويفتخر بها الخاص والعام".

ويكون تعليق قصيدة عنتره على جدران الكعبة أحد علامات ظهور النبي محمد عليه الصلاة والسلام.. وتحكى السيرة أن عنتره وهو فى مجلسه بين الشعراء والفارس، رأى رجلاً يجرى قائماً نحوهم، وأخبرهم الرجل أنه قادم من البيت الحرام، وأنه سمع عبد المطلب جد النبي يعظ أهل مكة ويخبرهم أن زمان

النبي قد أهل لأنه عبد المطلب قد رأى مناماً، كأنه واقف
قدام "هبل" أشهر أصنام الجاهلية وهو الصنم الأكبر الذي على
الركن اليماني، وكأنه سأل عن الرجل الروحاني (النبي) متى
يكون ظهوره؟

فقال هبل: إذا أينعت نخلة يثرب، ووقع الجوع والغلاء في بلاد
المغرب، وانتشق ليوان كسرى وخرب، وعلق قصيدته فارس بنى
عيس الأدهم، وأجل سفك الدماء في الحرم، وخولت له رقاب
الفرسان من العرب والعجم.. وفي "سيرة سيف بن ذي يزن"
وهو شخصية تاريخية عاشت قبل الإسلام، يصل مؤلفو السيرة
الصلة بينه وبين النبي محمد، عن طريق وزيره "يثرب" ولا
يخفى ما في اختيار اسم الوزير من دلالة، فيثرب هي المدينة
التي هاجر إليها النبي وأصحابه.. وفي السيرة الهلالية يتصل
نسب بطلها الأساسي أبي زيد الهلالي بالنبي عليه الصلاة
والسلام، من خلال أم أبي زيد "خضرة الشريفة" وفي "سيرة ذات
الهمة" نجد أن أبرز صفات أحد أبطالها الأمير الصحصاح أنه
"زائر لقبر النبي زين الملاح، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم
ما أظلم الدجى وأتار الصباح".



القصص الشعبي والمعجزات النبوية

نعكس قصص المعجزات النبوية التي صاغها الخيال الشعبي مدى تعلق الوجدان الجمعي بالخوارق والمعجزات ومحاولة تفسيرها وتعليلها بما يتكامل مع ما يحمله هذا الوجدان من موروثة قديمة، ويستهدف، هذا الوجدان من رولية قصص المعجزات وتدوينها والاستمتاع بسماعها أو قراءتها، تأكيد المعجزات النبوية، والاستجابة لذوافع أخلاقية واجتماعية من ناحية، والترويج لبعض الفرق الإسلامية سياسيا من ناحية أخرى.

وتسوق الدكتورة نبيلة إبراهيم في دراستها المهمة عن "السيرة النبوية بين التاريخ والخيال الشعبي" التي أشرنا إليها، بعض القصص الشعبي الذي يروي لتأكيد هذه الأهداف الوجدانية والأخلاقية، والتي مازالت تروج بين العامة حتى الآن مثل:

قصة عامر اليهودى عابد الأصنام* وقصة اليتيم المظلوم*
وقصة الغزاة والجميل* وكل هذه القصص تنبع فى طبقات
شعبية فى الاحتفالات الدينية والأسواق الشعبية.
وتحكى قصة عامر اليهودى عابد الأصنام، عن هذا الرجل
الذى كان له ابنة أصيبت بالشلل والجذام، وكان يتوسل للأصنام
أن تشفيها، وبينما هو عاكف على عبادة صنمه ذات يوم، شاهد
نورا ملأ الأفاق، ثم كشف الله عن بصيرته فرأى الملائكة عند
الكعبة. وقد اصطفت وراء الجبال الساجدة والأرض الهامدة،
وسمع مناديا ينادى: قد ولد النبي الهادى، فسأل عن اسمه فأجابته
حجر بان اسمه محمد المصطفى، فخرج هو زوجته ليذهبا إليه،
فرأى ابنته تقف سليمة معافاة، فسألها أبوها وهو فى ذهول تام
عن شفائها فقالت له: أنها رأت نورا ملأ ما بين السماء
والأرض، وعم الوجود، فلما رأت شخصا أمامها يسطع النور
من وجهه، سألت من هو؟ فقول لها: أنه سيد ولد عدنان. وسألت
عن اسمه، فقول لها: محمد وأحمد، فسألت عن دينه، فقول لها،
دينه هو الإسلام، وهو قرشى يعبد الواحد القهار، فلما شكت
لصاحب الصوت من داتها، قال لها: توسلى لله بجاهه فقد قال
الرب القريب الدانى، أتى قد أودعت الإنسان سرى وبرهاتى، فلا
أخيب من دعائى* فبسطت يدها ودعت الله، ثم مسحت بيدها على
وجهها وجسدها، فاستيقظت من نومها صحيحة البدن.. ورحل
الأب والأم والأبنة إلى مكة، وطرقوا بيت أمنة بنت وهب أم
النبي، وسألوها عن المولود الذى نور الله به الوجود، فقالت لهم:
لنى أخاف عليه من اليهود، ولكن الرجل أخبرها أنه هو وعائلته

فارقوا وطنهم محبة فيه، فسمحت لهم برويته، وقبلوا قدميه، وسلموا العهد والأمانة، وبعد أن خرجوا عاد عامر ثالثة ليرى الرسول، وقبل قدميه ثانية، ثم شقيق شهقة وعجل الله بوجهه إلى الجنة.

وتعلق الدكتور نبيلة إبراهيم على هذه القصة الشعبية بقولها:

"هذه القصة مع بساطتها استغلت عناصر كثيرة من السيرة النبوية، وهي تلك العناصر التي تحكى عن معجزات الرسول عليه السلام، فقد استغلت ما روى في السيرة من إيمان بعض المكابرين والمعادنين المفاجئ بالدعوة، سواء كانوا من العرب أو اليهود، كما استغلت قصة النبوة التي رآها كسرى وغيره، ثم ذلك الخبر الذي يحكى كيف أن الأحجار كانت تحي النبي عليه السلام قبل أن يهبط عليه الوحي، ونقول له: "السلام عليك يا رسول الله".

أما قصة اليتيم المظلوم، فقد ألقت استلهاما للآية القرآنية "أما اليتيم فلا تقهر" فهي تحكى أن النبي رأى وهو عائد من إحدى غزواته طفلاً صغيراً مسكيناً نائماً على الأرض وحوله أطفال يلعبون، فابقظه النبي وسأله عن عدم مشاركته الأطفال في لعبهم ولم يكن الطفل يعرف النبي، ولكنه أجابه بفصاحة شعرية أعجبت النبي فاستزاده منها، ثم عرف بنفسه، وعرض عليه أن يكون جده، ويكون الإمام على أبيه، والسيدة فاطمة أمه، والحسن والحسين أخويه ففرح الصبي، وأقنمه النبي إلى ابنته، فعاش في بيتها، وعندما خرج النبي في إحدى غزواته طلب أن ينضم إليه محارباً، فأخذه معه، وأصيب الصبي في تلك الغزوة بضربة قاتلة

فصله الرسول عليه الصلاة والسلام وصلى عليه، ووراءه
سبعون ألفاً من الملائكة.

وأما قصة الجمل والغزاة فهي من أكثر هذه القصص ترددا
على لسان المنتشرين الشعبيين، فهي مصاغة شعرا، وتحكى عبر
بذاتها قصة جمل وغزاة ذهابا للنبي عليه الصلاة والسلام لكي
يشكيا له من ظلم الإنسان، ويطلبيا منه الانتصار لهما "وإذا كانت
هذه القصة في عمومها تصوير الطابع الإنسان وغبائه وقلة
حيلته في بعض الأحيان، فإنها هنا لا تؤدي هذا الغرض وحده،
بل تؤدي غرضا آخر أهم وهو إثبات معجزة الرسول عليه
الصلاة والسلام، فضلا عن الإشادة بأخلاقه السامية التي حرص
على نشرها بين المسلمين وتبدأ القصة بمدح الرسول عليه
الصلاة والسلام، فيقول زجلا:

في أول القول مدحك يا نبي استفتاح
يا من تسلم عليك الشمس كل صباح
ما أحلى مديحك وما أخفه على المداح
وأنسا إن مدحت النبي لم على جناح
وثاني القول مدحك يا نبي مطلوب
وكم من ضيقة وتفرجها على المكروب
جت الغزاة ولبنها على الثرى منكوب
ضمنتها يا حبيبي لما أولفت المكتوب
وتحكى القصة الشعبية قصة غزاة أراقت أن ترضع أطفالها،
فطلبت من صيادها أن يترك أسرها لتقوم بالمهمة وتعود إليه
فرفض، فضمنها النبي وأولفت بعهدا ثم ينتقل القاص الشعبي

إلى قصة الجمل فيسردها ليعود إلى ربطها مع قصة الغزالة في
نسيج واحد.

ثم يستمر الشاعر الشعبي فيسرد على لسان الجمل القصة،
وكيف كان جملاً قوياً، ثم إصابه المرض، فأعنتى به صاحبه
قليلاً، ثم لما تأكد من شدة مرضه أهمله، وقطع عنه زاده، وخاف
الجمل أن يذبح فذهب للنبي يستغيث به، ويذهب النبي والصحابة
مع الجمل إلى صاحبه، الذي تعرف أنه قاسى القلب فقد اعتدى
على جاريته ففقا عينها ولكن عينها تشفى بعد رؤيتها للنبي.
ويرفض صاحب الجمل تصديق قصة نطق الجمل بالشكوى
للنبي، ويطلب النبي من الجمل إعادة شكواه، فيفعل ويسلم
اليهودى صاحب الجمل، ويتحرر الجمل من الذبح، وبذلك يؤكد
القاص الشعبي بث القيم الأخلاقية من خلال المعجزات النبوية،
وكما تقول الدكتورة نبيلة إبراهيم في تعليقها على القصة "وإذا
كانت مهمة الدعوة المحمدية هي إعادة النظام إلى الحياة والغاء
فوضويتها من خلال تطبيق أسس الإسلام العادلة، فقد انتهت
القصة، بتحرير المظلوم، وفك قيد الأسير، وخضوع الظالم
للنظام الدينى العادل".



(٦)

سيرة النبی.. رؤية غربية

كارين لومسترونج كاتبة بريطانية وباحثة في تاريخ الأديان، عاشت فترة من حياتها كراهية، ولكن الحياة في الدير كانت أضيق من أن تتسع لرؤيتها الخاصة للأديان، فهي بحكم دراستها المتعمقة في تاريخ الأديان، وخاصة الأديان التوحيدية الثلاث، اليهودية والمسيحية والإسلام، تؤمن بأنها جميعا تسعى للحب، والعدالة والسعادة للإنسانية، ولكنها على العكس من هذه الرسالة السامية اتخذت منطلقا للكثير من العداوات والصراعات والحروب الدموية.

وكتابها: "محمد، سيرة حياة النبي" الذي صدر بالإنجليزية عام ١٩٩٢، وبالعربية عام ١٩٩٨ بترجمة الدكتورة فاطمة نصر، والدكتور محمد عناني منشورات "سطور". يقدم رؤيتها للإسلام ولنبيه عليه الصلاة والسلام، متوجهة بخطابها للقارئ الغربي. ولقد صدر كتابها لواجهة الضجة الغربية المثيرة التي انفجرت بعد نشر الكتاب السيئ السمعة "آيات شيطانية" للكاتب البريطاني الهندي سلمان رشدي الذي أيقظ الموروث الغربي الكريه للعداء للإسلام، بما يحمله هذا العداء من عنصرية تضرب بجذورها في تاريخ قديم، لم يستطع الكثير من المثقفين الغربيين، رغم دعاوهم عن العلمية والموضوعية، أن يتخلصوا من تأثيراته الواعية واللاواعية. وقد جاء كتاب الكاتبة البريطانية

كارين أرمسترونج في توقيته المناسب، فهي تعرض لحياة بنى الإسلام محمد الذي حرف الكتاب الغربيون اسمه، واقتروا على حياته وعلى تعاليم الذين الذي أرسل به لقرون طويلة، لا تريد أن تنتهي. وهي، الكاتبة، بعرضها الموضوعي لحياة محمد، والذي يأخذ الإطار الثقافي للقارئ الغربي في الاعتبار، تبين لهذا القارئ أن كراهية الغربيين وعداءهم للنبي الإسلام والمسلمين، والربط بينهم وبين العنف والهمجية والشهوانية والتخلف "بناقض" ما يدعيه الغرب من عقلانية، ومن تسامح فكري وعقائدي، وهي بوضعها يدها على هذا التناقض تهدم دفاعات القارئ الغربي، وتصيب زهوه بهويته العقلانية في مقتل.

وليس قيما تسرده الكاتبة البريطانية عن حياة النبي جديد، بالنسبة للقارئ العربي أو المسلم، فالمصادر الأساسية التي اعتمدت عليها الباحثة هي المصادر التقليدية للسيرة النبوية، كسيرة ابن هشام، وطبقات ابن سعد، ومغازي الواقدي، وتاريخ الطبري.. ولكن الجديد في كتاب الباحثة البريطانية هو قدرتها على استنطاق هذه الأحداث والوقائع القديمة بمعانيها الإنسانية العميقة، وقدرتها - رغم الحرص على الحيادية - على النفاذ إلى جوهر دعوة دينية غريبة عنها وعن موروثها الثقافي والعقدي، لكن إدراكها لهذه الصعوبات منذ البداية، ساعدها على اختراق الحواجز والعقبات التي تحجب حقيقة الإسلام السامية، وروعة كتابه المقدس، كما ساعدها على قراءة كتب المؤرخين المسلمين القدامى، قراءة واعية ومنصفة في الوقت ذاته، من خلال وضع هذه المصادر التاريخية الفتية والناضجة بالحيوية،

في سياقها الصحيح زمانا ومكانا.

فكتاب السيرة المسلمون، لم يكتبوا سيرة نبيهم، كما كتب الكتاب المسيحيون سير قديسهم بطريقة غير نقدية. أما كتاب السيرة المسلمين فقد تميزوا بنقتهم التي لا حد لها في الشخصية التي يورخون لها، ليخرج القارئ بصورة واقعية مقعنة بالحيوية عن ذلك الإنسان غير العادي، ومن الطبيعي القول بأن هؤلاء المؤرخين لم يكتبوا بنفس الأسلوب الذي يتبعه المؤرخون الغربيون المحدثون. فقد كانوا رجال عصرهم، وهكذا نراهم كثيرا ما يوردون قصصيات يصفون عليها طابع الإعجاز التي يمكن لنا اليوم تفسيرها تفسيراً مختلفاً، لكن هؤلاء المؤرخين نجدهم يعون طبيعة مادتهم المعقدة، وأيضا، يعون الطبيعة المراوغة للحقيقة. لكن المساواة بين البشر - وكما سنرى - سمة ذات جذور عميقة في الإسلام، وحتى إذا ما قيل أن سلسلة المصادر لا تتفق مع المتطلبات الحديثة للتاريخ، فالمؤرخون في حالتنا هذه يبذلون جهدهم كي تتساوى أهمية كل رواية للأحداث، وهم إذ يوردون كل الروايات لا يوافقون عليها جميعا، وهذا في حد ذاته، برهان على أن هؤلاء المؤرخين القدماء، ورغم تبجيلهم الواضح للرسول، كانوا يضمنون سيرهم كل الروايات بكل ما يملكون من أمانة وصدق.

وتقدم الباحثة من خلال سردها لوفائع حياة النبي في المدينة محاولته إقامة مجتمع عدل وكفاية هو في جوهره تحقيق للمثبنة الإلهية. ومن خلال سردها لغزواته ومعاركه الحربية، تقدم الباحثة مفهوما جديدا للجهاد، يختلف جذريا عن ذلك المفهوم

العذائي والمحموم الذي يقدمه الإعلام الغربي، عن جهل وسوء قصد.. فخلافا للمسيح الذي اتسمت دعوته بالمسالمة، خاض نبي الإسلام معارك إيجابية وصراعات في الواقع لردع الظلم ورد العدوان "أى أنه وبلغه اليوم، قدم المثال على الفعل الإيجابي، لحروب الإسلام كانت دفاعية، وردا للعدوان، بالإضافة إلى أنها كانت وسيلة لفرض "السلام الإسلامى" الذى أمكن فى ظله وقف حمامات الدم، وإقامة مجتمع عادل أساسه القيم الرفيعة، إذا فالجهاد هو التمثال المستمر ضد الذات، وضد الآخر من أجل تحقيق الإرادة الإلهية والعمل على إبعاد البشرية، كما أنه لم يقتصر على كونه وسيلة أو هدفا له قط، وعلى عكس ذلك، فهو دين الاستمرارية مع الماضى، وعقيدة سلم وتصالح.

وتفسر الباحثة للفارئ الغربى سر غضب وثورة المسلمين على كتاب "آيات شيطانية" وكتابه، وتأبيد الغرب وتبنيه للكاتب والكتاب، فشخصية محمد تجاوزت المسلمين كشخصية تاريخية، لتصبح رمزا لكل ما هو مقدس وغال وعزيز عليهم، وأى امتهان لشخصية النبي، هو امتهان لعقيدة المسلمين وتاريخهم وثقافتهم ووجودهم.. فالنبي محمد يعيش فى وجدان المسلمين، وفى أسلوب تفكيرهم، وفى طريقة حياتهم اليومية، وهو بالنسبة لهم الهوية: الماضى والحاضر والمستقبل، ثم تنتهى رسالتها بقولها: "إن محمدا أتى بالإسلام، والإسلام دين سلام ووفاق، وأنه لن يختفى ولن ينزوى أبدا، وإن بقاءه فى عتقوانه وقوته هو خير للبشرية، لأنه يدعو، كما دعا محمد، إلى إرساء قواعد الحب والعدل والسلام الإنسانى".

وتسجل الباحثة البريطانية كارين ارسترونج في كتابها "سيرة النبي محمد" ظاهرة استمرار الكراهية الغربية القديمة للإسلام، والنظر إلى النبي محمد على أنه عدو، فهذه الكراهية والعداء يواصلان ازدهارهما حسب تعبيرها على جانبي المحيط الأطلسي، ولم يعد هناك ما يمنع الناس من الهجوم على هذا الدين، حتى ولو لم يعرفوا عنه إلا القليل!

وتحاول الباحثة تفهم أسباب ذلك العداء، وهي ترجعه إلى التحدي الذي واجهه الغرب من الدولة الإسلامية، ومن الفكر الإسلامي، وقد استمر هذا التحدي لقرون.. فعندما نشأت الإمبراطورية الإسلامية، في القرن السابع الميلادي، وامتدت الفتوحات الإسلامية بسرعة لتشمل العالم المسيحي في الشرق الأدنى وشمال أفريقيا، وهي المناطق ذات الأهمية القصوى لكنيسة روما، بدأ أبناء الغرب المأخوئون بهذا النجاح السريع والداهم للإسلام يتساءلون: "إذا ما كان الله قد تخلى عن المسيحيين ورضى عن الكفار؟" وعندما خرجت أوروبا من عصورها القديمة وجدت استمرار توسع الإمبراطورية الإسلامية قائما وكانت أوروبا عاجزة عن التأثير في تلك الثقافة القوية والدينامية، وكان الفضل هو مال المشروع الصليبي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، بل إن الأتراك العثمانيين لم يلبثوا أن جاؤوا بالإسلام إلى عتبة دار أوروبا نفسها، وكان من المحال على المسيحيين الغربيين، بسبب هذا الخوف، أن يلتزموا العقلانية أو الموضوعية إزاء العقيدة الإسلامية. وفي الوقت الذي كانوا ينسجون فيه خيالاتهم المخيفة عن اليهود، كانوا يرسمون

صورة شائنة للإسلام تعكس بواحد قلتهم الدينية.
"كان علماء العرب يهاجمون الإسلام باعتبارهم عقيدة تجديف
في الدين، ويصفون محمدا بأنه المدعى الأكبر، ويتهمونونه بأنه
أنشأ دينا يقوم على العنف، ويمتثلق السيف لفتح العالم، وأصبح
اسم محمد بمثابة البعير الذي يخيف الناس في أوروبا، وكانت
الأمهات يستعملن نفس اللفظة في تخويف أطفالهن العاصين".
لقد تحولت هذه الرؤية المزيفة والكاذبة للإسلام ونبي الإسلام
لتصبح مؤثرا أساسيا في نظرة الغرب إلى العالم الإسلامي.
وعندما التقى المسلمون بالغرب الاستعماري في القرنين الثامن
عشر والتاسع عشر أعجب كثير من المسلمين بالحضارة الغربية
الحديثة، وحاولوا تقليدها، لكن الممارسات البتعة لأوروبيين
والأمريكيين طوال القرنين الماضيين حولت هذا الإعجاب
الإسلامي إلى استياء مزير، وأيقظ هذا الاستياء المبرر من جانب
المسلمين الموروث العدائي القديم للغرب تجاه الإسلام
والمسلمين.

وبعد أن تستعرض الباحثة بعض الكتب الغربية القليلة التي
تروى السيرة النبوية، وتبدى ملاحظاتها النقدية عليها، تقدم
للقرارئ المنهج الذي ستتبعه، والذي يختلف بعض الشيء عن كتاب
السيرة الآخرين من الغربيين، فنقطة انطلاقها أن المصادر
التاريخية الإسلامية تجعلنا نعرف الكثير عن النبي أكثر مما
نعرف عن مؤسسى الأديان الأخرى، كما أن دراسة حياته يمكن
أن تهينا إدراكا عميقا ومهما لطبيعة التجربة الدينية لجميع
الأديان تمثل حوارا بين حقيقة مطلقة تستعصى على التعبير،

وبين الأحداث الدنيوية، وفترة نبوة محمد تتيج لنا أن نلخص هذا الحوار فحسباً دقيقاً أوثق مما يتيسر للباحثين في العادة.



وتستعرض الباحثة البريطانية العديد من الأساطير والخرافات التي صنعها المؤلفون الغربيون في العصور الوسطى ليشوهوا بها صورة نبي الإسلام في خيال شعوبهم ومن أبرز هذه الأساطير أسطورة "ماهاوند" وهو أحد الأسماء المزيفة التي أطلقوها على النبي العظيم، بداية من القرن الثاني عشر الميلادي، و"ماهاوند" هذا هو عدو الممالك المسيحية، ويوضح الباحث ر. و. ساذرن في دراسة له عن "صور الإسلام في الغرب إبان العصور الوسطى" عملية صناعة الأساطير الغربية عن الإسلام بقوله: "لأنك أنهم عندما وضعوا هذه الأساطير والأوهام، كانوا يرون أنها تمثل الصورة الحقيقية، إلى حد ما، للواقع الذي تصفه، ولكنها اتخذت بعد كتابتها طابعاً أدبياً وهيها حياتها الخاصة. ولم تتغير كثيراً صورة محمد واتباعه من أبناء الصحراء، على مستوى الشعر الشعبي، من جيل إلى جيل". ونرى الباحثة أن الطابع الخيالي لشخصية "ماهاوند" في الغرب، زاد من الصعوبة التي يواجهها الناس اليوم، إذا حاولوا النظر إلى شخصية النبي، باعتباره شخصية تاريخية جذيرة بالدراسة الجادة. وتشير إلى اتفاق سلمان رشدي وسوء نيته في اختياله الصورة الخيالية لشخصية "ماهاوند" في روايته "آيات

شيطانية" لتتطابق على أعلى مستوى مع الأوهام الغربية
الراسخة.

وتكشف الباحثة عن الروح الاستعمارية التي سادت بين بعض
مفكرى القرن التاسع عشر، فاوحت إليهم بتفوقهم على الأجناس
الأخرى من الهمج فى آسيا وأفريقيا، والتي انعكست فى النظرة
إلى الإسلام، ويعبر الشاعر الفرنسى "شاتوبريان" عن هذا المثل
الصليبى الأعلى بعد أن بهرته حملة نابليون، فكتب يقول: "إن
الصلبيين حاولوا نشر المسيحية فى الشرق، وهى أقرب الأديان
إلى إنكاء روح الحرية ! ولكنهم اصطدموا فى جهودهم الصليبية
بالإسلام، وهو عقيدة معادية للحضارة، فهى تشجع بانتظام على
انتشار الجهل والاستبداد والرق" ومن الطريف أن بعض مفكرى
العصور الوسطى كانوا يهاجمون محمدا لأنه منح الطبقات
الفقيرة سلطات أكثر مما ينبغى، مثل العبيد والنساء، ولذلك أبدت
الثورة الفرنسية إعجابها بالإسلام، لا لأنها عرفته أكثر، ولكن
لأنه أصبح متوافقا - من وجهة نظرها - مع شعاراتها !
ومن الطريف أيضا ربط الصليبيين الجدد فى القرن التاسع
عشر بين اليهود والعرب، واعتبارهما معا - كما كتب شاتوبريان
هذا "مجموعة متدنية من عناصر الطبيعة البشرية" ثم يضيف
المزيد من خزعبلاته العنصرية "يشهد المرء دلائل فى كل شيء
على أن العنصر السامى، فيما يبدو لنا، عنصر ناقص بسبب
بساطته. وإذا كان لى أن أضرب لذلك مثلا، قلت إن مقارنته
بالأسرة الهندية الأوروبية تشبه مقارنة رسم بالقلم الرصاص
بلوحة زيتية، فهو يفتقر إلى التنوع والثراء والحفول بالحياة،

وهي شروط الكمال".

ويدفع الفرنسيون الآن، غالبا، ثمن هذه الأفكار العنصرية للصهيونية العالمية. أما عدائهم للإسلام والعرب فيستمر بلا مقابل!

■ ■ ■

الوحي.. اللقاء بالحقيقة المطلقة

لا تزال الأسرار المقدسة للوحي، والاشرافات العليا للأرواح العظيمة، تلبى على التحليل الجاف القاصر على ما نتركه المناهج البشرية في بحثها الدائب عن الحقيقة.. ولا تزال الحقيقة ذاتها، ومن هنا عظمتها التي تصل إلى حدود القداسة، ملتزمة وحمالة أوجه، وذات تجليات متعددة، تعطى لأشواق الناس إليها المعنى والأمل.

ومن الحقائق التي تربط الأرض بالسماء والله بالإنسان، والغيب بالواقع، والبشرى بالمقدس: حقيقة الوحي الإلهي كأحدى الحقائق العظمى.

لقد عاش الرسول العظيم - قبل لقائه بالوحي - خبرات روحية وإنسانية عميقة من تلك الخبرات التي تساعد الأفراد الأفاضل، على الوصول إلى حالة من سمو والشفافية تعلو فوق

خبراتهم العادية، إلى الروى والأحلام المحملة بالوعود المضبوطة والصادقة كقلق الصباح، إلى الخبرة العظمى واللقاء المقدس مع الوحي الذى رواه النبى صلاة الله وسلامه عليه، ونقلته إلينا كتب السيرة النبوية، والذى بدأ بظهور الروح المقدس إلى جانبه وهو يتعبد فى الجبل، طالبا منه أن يقرأ، وكانت إجابته الأولى: "ما أنا بقارئ". لست من القلة القارئة فى مكة. ولست من رواة أساطير الأولين، ولست كاهنا يقرأ الطالع. ثم يطوقه جبريل حتى يبلغ منه الجهد، فينطلق لسانه بأول آيات القرآن الكريم "اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذى علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم" ويرتعد الجسد النبيل، ويشعر أن ما حدث فوق الاحتمال فيندفع من مكمنه الجبلى، ليتسلق القمة، وليظهر له جبريل ثالثة، وصوته يملأ أفاق السماء، يقول له "يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبريل، قال: فوقت أنظر إليه فما أقدم أو أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه فى أفاق السماء، قال: فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفا ما أقدم أمامي، وما أرجع ورائي" (سيرة ابن هشام).

وتحاول الباحثة البريطانية كارين ارمستروغ فى كتابها "سيرة النبى محمد" أن تقرب بين القارئ الغربى المعاصر، وبين استيعاب ذلك الحضور الساحق للوحي الإلهي إلى النبى، مبينة أن هذا الإحساس الطاعى بالحقيقة المقدسة الذى انتاب محمدا سلام الله عليه وصلواته قد انسحق على إثر إدراك حضور الرسل والأنبياء فى معظم النواميس، وفى المسيحية، وصفت بأنها رهيبة شامخة ومبهرة، وسميت فى اليهودية بالمقدس (..)

وكل ما خبره هؤلاء الأنبياء هو سمو حقيقة تتواجد خارج نطاق المفاهيم، وتدعوها عقائد التوحيد (الإله) وترجع طبيعة التجربة الرهيبة إلى كونها قد نقلت كلا من أولئك الأنبياء إلى عوالم مجهولة، نائية عن سلوان ما هو طبيعي من الأمور، كل ما فيها صادم، ولكنها أيضا مبهرة وتمارس جانبية لا تقاوم، ذلك لأنها، وبطريقة ما، تحمل معها ذكر شيء مألوف يرتبط ارتباطا معقدا بأصاقل النفس".

لم يكن في وعي النبي تعليم دينية سابقة تساعد على فهم ما حدث واستيعابه، لم يكن ثمة غير السيدة خديجة الزوجة الرؤوم، ليلقى بنفسه في حجرها وهو يرتعد طالبا منها أن تنشره لتحميه مما حدث له، وكانت السيدة العظيمة عند حسن ظن نبيها في تلك المرة، وفي المرات التالية التي زاره فيها الوحي.

كانت السيدة العظيمة تعرف محمدا كما تعرف نفسها، وكان دفنها الأمومي مساعدا على اجتياز مرحلة الخوف، لتبدأ النفس النبوية إلى ما صارت إليه: "أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا، والله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدى الأمانة، وتحمل الكل، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق". هكذا تكلمت السيدة خديجة، وعندما ذهبت لابن عمها ورقة بن نوفل العارف بالكتب المقدسة السابقة ليزيدها يقينا، صاح من فوره: قدوس قدوس والذي نفس ورقة بيده، لئن كنت صدقتني يا خديجة، لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة، فقولى له: فليثبت".

وحيثما أبصر النبي بعد ذلك في الكعبة أسرع إليه وقبله على

جيبيله.

وتشير الباحثة البريطانية في تحليلها لحقيقة الوحي، إلى أن كل الأفكار الخلاقة التلقائية موحاة، وتتطلب إقزة إلى الأمام في عالم الحقيقة غير المختلفة. وإذا نحن نظرنا من تلك الزاوية، فإن الوحي لا يعنى تراجع العقل، لكنه العقل وقد تزايدت سرعته، وتم تكثيف محتوياته. لقد كان محمد قد وصل - قبل الوحي - إلى أعناق المشكلة التي تواجه مجتمع مكة، وجاء القرآن بحل روحى اجتماعى وسياسى، لم يخطر على تفكيرهم من قبل، لكنه لبى أعماق آمانيهم وطموحاتهم.



(٧)

قصص الأنبياء..

أو عرائس المجالس

لعل أشهر كتب قصص الأنبياء في التراث العربي الإسلامي، هو كتاب "عرائس المجالس"، لأبي إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري المعروف بالثعلبي والمتوفى عام ٤٢٧ هـ، وقد كان الثعلبي واعظا غلب عليه القصص، كما يقول القدماء. وبينما الثعلبي منذ بداية كتابه أنه سيشرح قصص الأنبياء المذكورة في القرآن.. ثم يمهّد لعمله بذكر بعض وجوه الحكمة في قصص سبحاته وتعالى أخبار الماضين على سيد المرسلين، والتي يشير إليها قوله تعالى "وَكَلَّا نَقْصُصْ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْنُ بِهٖ فَوَائِدُكَ". وما قالته الحكماء بأن هذه القصص جاءت لخمسّة أمور:

أولها: إظهار نبوته، ودليل على صدق رسالته، لأنّه صلى الله عليه وسلم لم يختلف إلى معلم، ولم يرحل في طلب العلم ليعرف أخبار الأولين، إلى أن جاءه الوحي الإلهي، فآخذ يحدث بأخبار ما مضى من القرون، وسير الأنبياء الماضين، والملوك المتقدمين فمن كان من قومه عاقلا موقفا صدق بما يوحى الله إليه، وإخياره إياه بذلك، فأمن به ومن كان عدوا معاندا حسده وجحده وأنكر ما جاء به وقال كما أخبر الله تعالى "وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا" وقال الله تعالى تكذبا لهم وتصديقا لنبيه عليه السلام: "قل أنزلّه الذي يعلم

السر في السموات والأرض".

والحكمة الثانية من القصص القرآني عن الأنبياء، هي الأسوة الحسنة، والعبرة بدلالات الأحداث، والقوة بأخلاق الرسل، والنهي عما وقعت فيه أممهم من خطايا استوجبت العقاب الإلهي، وبذلك تم الله لنبه معالي الأخلاق وأنب الأنبياء، ثم أتلى عليه ربه بقوله "وإنك لعلى خلق عظيم" ولذلك وصفته أم المؤمنين عائشة حين سئلت عن خلقه، بقولها رضى الله عنها "كان خلقه القرآن".

ويستخلص المؤلف من أقوال الحكماء عن الحكمة الثالثة في سرد قصص الأنبياء على النبي أنها إعلاء من شأنه صلوات الله وسلامه عليه وشأن أمته، فأطلعه على أخبار الأولين وقصص المتقدمين، أعلمه أنه عوفي هو وأمته من كثير مما استحل به الله الأنبياء والرسل، وخفف عنهم في الشرائع، ورفع عنهم الانتقال والأهلال التي كانت على الأمم السابقة. وقد أول بعض المفسرين قوله تعالى: "واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة" بأن النعمة الظاهرة هي تخفيف الشرائع والنعمة الباطنة تضعيف الصلوات، قال تعالى: "يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر" وقال تعالى: "وما جعلنا عليكم في الدين من حرج" وقال تعالى: "يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا".

ويؤكد الثعلبي في مقدمته لقصص الأنبياء على قيمة السماحة واليسر الإسلاميين اللذين اختص بهما الله المسلمين، مشيراً إلى فخر النبي عليه السلام بأنه بعث بالحنيفية السمحة. وفي الحكمة الرابعة من إيراد القرآن الكريم لقصص الأنبياء

يلمس المؤلف نقلاً عن الصوفى المعروف الثبلى، اختلاف مستوى التقى لهذه القصص بين العامة والخاصة، حيث "اشتغل العالم بذكر القصص (أى بسردها وروايتها والإضافة إليها) واشتغل الخاص بالاعتبار بالقصص".

والاعتبار بالقصص يومئ إلى التأمل فى الأنبياء وثوابهم، وفى أعدائهم وجاهدى رسالاتهم وعقابهم، وتحذير القرآن الكريم، فى غير موضع، عن صنع الأعداء ومواقفهم، والحث على الاقتداء بالأنبياء والرسول. يقول الله تعالى: "لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسانين" ويقول: "لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب" وهدى وموعظة للمتقين" ونحوها من الآيات.

والحكمة الخامسة فيما قصه الله على نبيه من قصص الأنبياء والرسول الماضين، هى إحياء ذكراهم وأثارهم "ليكون المحسن منهم فى إبقاء ذكره، مثبِتاً له تعجيل جزائه فى الدنيا، حتى يبقى ذكره وأثاره الحصنة إلى يوم القيامة، كما رغب خليل الله إبراهيم عليه السلام فى إبقاء الثناء الحسن، فقال: "وأجعل لى لسان صدق فى الآخرين" والناس أحاديث. ويقال ما مات ميت والذكر يحياه واتشد الدريدى:

وإنما المرء حديث بعده... فكان حديثاً حسناً لمن وعى
وقد صنف الثعلبى كتابه "عرائس المجالس" على نوع كتب المؤرخين القدامى. يبدأ بصفة خلق الأرض، وكيفيتها، وحدودها ومسافاتنا، وطبقاتها وسكانها. ثم ذكر الأيام التى خلق الله فيها الأرض، وأسماءها وألقابها. وهو يسند إلى وهب بن منبه، باعتباره أشهر رواة أخبار الأولين، أن أسماء الأرض السبعة

هى: الأديم - البساط الثقيل البطيخ- المتثقلة الماسكة
 الثرى. وأما أسماء الأرض المذكورة فى القرآن فهى سبعة أيضاً:
 سماها الله: فراشا، فقال تعالى: "الذى جعل لكم الأرض فراشا"
 وسماها: قرازا، فقال: "لم من جعل الأرض قرازا" وسماها: رتقا،
 لقوله: "أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا
 ففتقناهما" وهى بساط، "والله جعل لكم الأرض بساطا" وهى مهاد
 "لم نجعل الأرض مهادا" وسماها، ذات الصدع، "والأرض ذات
 الصدع" ويعنى به اللبات، وسماها كفاتا "لم نجعل الأرض
 كفاتا".

وكما يستعين صاحب "عرائس المجالس بالموروث القديم،
 والإشارات القرآنية، يستعين بمعتقدات العرب قبل الإسلام عن
 الأرض، الذين كانوا يرون أنها "الأم التى منها الخلق، فهى أولى
 بأولادها أن يردوا إليها" وقد عبر الشاعر الجاهلى أمية بن أبى
 الصلت عن هذا المعنى شعرا بقوله:

والأرض معقلنا وكانت أمنا.. فيها مقابرنا، وفيها تولد!

وقد امتدت هذه الرؤية فى العصر الإسلامى، فقد سنل يحيى
 بن معاد الرازى أن ابن آدم يدري أن الدنيا ليست بدار قرار، فلم
 يطمئن إليها؟ فقال: لأنه منها خلق فهى أمه، وفيها نشأ فهى
 عشه، ومنها رزق فهى عيشه، وإليها يعود كفاتة، وهى ممر
 الصالحين إلى الجنة.



قصة خلق الأرض والإنسان

يتابع التعلّبي في كتابه المهم عن قصص الأنبياء، المسمى —
"عراس المجالس" قصة خلق الكون والإنسان، مستفيدا بطريقة
العهد القديم الذي يبدأ بسفر التكوين، ولكنه لا يكتفى بإشارات
وروايات العهد القديم، بل يحشد في هذا الباب معظم ما وصله
من مرويّات وأخبار شفاهية أو مكتوبة ليحفظ لنا ثروة كبيرة من
الحكايات والأساطير التي حاول من خلالها العقل الإنساني في
تلك المرحلة التاريخية تفسير ظواهر الوجود ومعجزة الخلق
البشري.

ويقرأ التعلّبي دلالات كلمة "الأرض" في القرآن الكريم ليربطها
بمعانيها التي فهمها المفسرون والمؤرخون القدامى.. ثمة سبع
دلالات لكلمة الأرض كما وردت في القرآن الكريم.. فهي: إشارة
إلى أرض مكة في الآية "أو لم يروا أنا أنزلت الأرض ننقيها من
أطرافها" وهي إشارة إلى أرض المدينة، في الآيات: "أو لم تكن

أرض الله واسعة فتهاجروا فيها" و"أن أرضى واسعة" و"وان
كانوا ليستقروا من الأرض ليخرجوك منها" وهي إشارة إلى
أرض الشام، في قوله تعالى: "ادخلوا الأرض المقدسة" وقوله
تعالى: "ونجيناهم ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين"
وهي أرض مصر، في الآية "وكذلك مكنا ليوسف في الأرض"
وقوله تعالى "قال اجعلني على خزانة الأرض أني حفيظ عليم"
"وان ابرح الأرض" و"ان فرعون علا في الأرض" "ويستخلفكم
في الأرض" وكلها إشارات إلى أرض مصر.. ويستخدم القرآن
الكريم كلمة الأرض بمعنى أرض المشرق، "أن يأجوج ومأجوج
مفسدون في الأرض" كان العرب يعتقدون أن أرض يأجوج تقع
في أقصى الشرق، وفي الرحلة الشهيرة التي كلف بها الخليفة
العباسي الرحالة ابن فضلان طلب منه استطلاع بلاد يأجوج
ومأجوج ضمن رحلته.

ثم يستخدم القرآن الكريم لفظ الأرض بمعنى عموم الأرض في
الآيات: "وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها" و"وما من
دابة في الأرض، ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم"،
ويفسره الثعلبي بأن هذه المخلوقات أمم مثلنا في التصوير
والهيئة، كما أنها مسخرة مثلنا لعمارة الأرض، ثم في قوله
تعالى: "ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام" بمعنى تحول
أشجار كل الأرض إلى أقلام.. وسابع دلالة للفظ الأرض في
القرآن هو ما يشير إلى الجنة وأرضها في قوله تعالى: "ولقد كتبنا
في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون"
وقوله تعالى: "وأورثنا الأرض نقيوا من الجنة حيث نشاء فنعم

أجر العاملين".

وبعد أن يتتبع التعليلي قصة خلق السموات وموردا الموروث الديني القديم، ومحاولا التوفيق بين هذا الموروث وبين ما ورد في القرآن الكريم عن السموات وخلقهن، يصل إلى قصة خلق أبي البشر آدم، أخذا برواية العهد القديم الثانية التي وصلته عن طريق تراث الإسرائيليات، ومحاولا تفسير قصة الخلق والخروج من الجنة في ضوء هذا الموروث، لكن ما يلفت النظر هنا، أنه يورد كل الروايات التي وصلته ولا ينحاز إلى أى منها، وبذلك حفظ لنا الكثير من الحكايات والأخبار المقدمة عن قصة الخلق. وفي صفة "خلق حواء عليها السلام" ينقل عن المفسرين الذين سبقوه، والذين يبدو أنهم أخذوا بالرواية الثانية في سفر التكوين عن خلق حواء بعد خلق آدم ومن ضلعه، يقولون: لما أسكن الله تعالى آدم الجنة كان يمشى فيها وحشياً، لم يكن له من يجالسه ويؤانسه، فالتقى الله تعالى عليه النوم فنام، فأخذ ضلعاً من أضلعه من شقه الأيسر يقال له القصيرى، فخلق منه حواء دون أن يشعر آدم بذلك ولا وجد له الماء ولو أولم (تألم) من ذلك لما عطف رجل على امرأة، ثم لبسها من لباس الجنة وزينها بأنواع اللزينة وأجلسها عند رأسه، فقالت الملائكة لأدم يمتحنون علمه: ما هذه يا آدم؟ قال: امرأة! قالوا: وما اسمها؟ قال: حواء.. قالوا: صدقت، ولم سميت حواء بذلك؟ قال: لأنها خلقت من شيء حي، قالوا: ولماذا خلقها الله تعالى؟ قال: لتسكن إلى وأسكن إليها.

وبعد أن تتبع التعليلي قصة خلق حواء كما جاءت في كتب

للمفسرين يتتبع قصة محنة الخروج من الجنة كما ذكرها أهل التاريخ على حد تعبيرهم. وهو يفعل في هذه القصة مثلاً فعل من قبل مايراد كل الروايات والأحداث والأشعار التي وصلت عن هذه القصة، ومما يورد في هذا المقام الرأي الذي يرى أن الله تعالى أخرج آدم من الجنة قبل أن يدخله فيها، وذلك لقوله تعالى: "لنـى جاعل فى الأرض خليفة" ولم يقل: فى الجنة. وهناك من يرى أن الجنة هى الرحم الذى سترد إليه بعد التكفير عن الخطيئة فى الأرض، أو بعد أن يتخلص البشر ممن لا يستحقون اللوالة والحياة فى الحظيرة المقدسة.

وينسب أهل الأخبار إلى آدم أنه أول من نسج للصوف، وإلى حواء أنها أول من غزلته، ليتخذا منه ثوبين يقيهما شرد البرد، ويربط المؤلف بين حرفة غزل ونسج الصوف وبين التأمل والتفكير، والتفكير يورث الحكمة، والحكمة تجرى فى الجوف مجرى الدم، فمن كثر تفكره قل طمعه، ومن قل تفكره كثر طمعه، وعظم بينه، ولما قلبه، والقلب القاسى بعيد من الله بعيد من الجنة قريب من النار.

وينسب إلى وهب بن منبه أن الله قد أوحى إلى آدم بعد أن كفر عن خطيئته وناب عليه، أن يجمع له العلم كله فى أربع كلمات.. واحدة لله تعالى، وواحدة لآدم، وواحدة بين الله وأدم، وواحدة بين آدم وبين الناس. فأما التى لله، لا يشرك به شيئاً. وأما التى لآدم، فإن الله يجزيه بعمله كل ما يحتاج إليه. وأما التى بينه وبين الله، فمنه الدعاء ومن الله الاستجابة. وأما التى بينه وبين الناس، فإن يرضى لهم ما يرضى لنفسه.

ومن الطريف هنا تلك الرواية التي تنسب إلى آدم أول من قال
الشعر وبالعربية، عندما علم بقتل ابنه قابيل لأخيه هابيل، وهي
جريمة القتل الأولى التي تغيرت من حولها الأطعمة، وأهبطت
الأرض، فقال شعرا:

تغيرت البلاد ومن عليها.. فوجه الأرض مغير قبيح.. إلخ!!
ويورد المؤلف ما قاله ابن عباس عن هذا الأمر، "من قال لن
أدم قال الشعر فقد كذب على الله ورسوله".



(٨)

قصة أبي البشر آدم
بين التوراة والقرآن

.. ترى الدكتورة نبيلة إبراهيم في دراستها عن "المسيرة النبوية بين التاريخ والخيال الشعبي" أن الإسلام قد غير من مفهوم العربي للزمن، فلم يعد الزمن عند العربي المسلم زمنا حسيا نسبيا فقط، كما كان عند أسلافه قبل الإسلام، بل أصبح الزمن إلى جانب حسيته ونسبيته كونيا وسمديا أيضا مرتبطا بالبعث والحساب على ما فعله الإنسان في دنياه.

"وهذا أول تغيير أدخله الإسلام على مفهوم العربي لوجوده في الحياة. وهو مفهوم كفيل بأن يزيل الإحساس بالقلق حيث أنه لم يوجد فيها إلا ليموت. ثم أكد الإسلام هذا المفهوم بتوضيحه لمسؤولية الإنسان في الأرض، فهو لم يخلق إلا من أجل السعي لحياة أفضل، ولا يتحقق هذا إلا من خلال أعمال عقله في اختيار العمل الصالح وتبذ العمل الطالح، وبهذا يكون الإنسان مسؤولا عن النتائج، بقدر ما سيكون مسؤولا عن المقدمات. كما أنه سبحانه على أن ما يفعله يكون وسيلة للبناء وليس معولا لهدم. ذلك أن الحياة بوصفها نظاما كليا لا يمكن أن تستقيم إلا إذا رجحت كفة الخير على الشر، فإذا حدث عكس هذا واستشري الشر بين قوم أبادهم الله وأحل محلهم قوما آخرين، كما حدث لعاد وثمود وغيرهم".

وتفسر الباحثة انطلاقا من هذا المفهوم قصة أبي البشر آدم

فى نصها القرآنى، فالقصة القرآنية عن خروج آدم من الجنة وفزوله إلى الأرض، تختلف فى صياغتها ودلالاتها عن نفس القصة، كما وردت فى التوراة، على الرغم من التشابه بين القصتين فى خطوطهما العريضة، فالقصة القرآنية تبدأ قبل خلق آدم: "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل فى الأرض خليفة، قالوا: اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال لى أعلم ما لا تعلمون". وهذا يعنى صراحة النص على أن آدم خلق ليعيش فى الأرض لا فى السماء، ولم يكن ما حدث فى الجنة إلا برهان على اختلاف آدم عن الملائكة المبرئين من العيوب، فهو معرض للغواية، وعليه وحده تقع مسؤولية التفرقة بين الخير والشر وبناء على ذلك فإن قصة آدم فى القرآن لم تهدف إلى إثبات خطيئة آدم، كما أقرتها التوراة والإنجيل، بل إن ما فعله آدم يشير إلى طبيعة الأسمى ساكن الأرض".

ثم تؤكد الآيات القرآنية بعد ذلك حكمة الخالق فى صنعة آدم على هذا النحو، وذلك فى قوله تعالى "وعلم آدم الأسماء كلها، ثم عرضهم على الملائكة، فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء أن كنتم صادقين" وليست أسماء المسميات مجرد أسماء، ولكنه الإدراك الذى يميز بين الشئ وغيره "بل لنقل أنه العلاقة بين الإنسان والموضوع. وهنا يتمثل جوهر طبيعة الإنسان.. وجوهر قيمة وجوده فى الأرض. ويتحدد هذا الجوهر بأن للإنسان فكر يتحرك فى كل ما حوله، وهذا الفكر ينطلق مرة من الداخل إلى الخارج، ومرة أخرى من الخارج إلى الداخل".

وتنتهي قصة آدم كما وردت في القرآن الكريم بوعيه
 لثبته وتحملة لمسؤولياته، وهما أساس تصالحه مع ربه،
 ورضاء الله عنه "فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه، أنه هو
 الثواب الرحيم" ثم تحسم القضية بقوله تعالى "إنا عرضنا الأمانة
 على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، واشفقن منها،
 وحملها الإنسان، إنه كان ظلوما جهولا" لقد حمل الإنسان
 مسؤولياته الجسام على عاتقه ليعيش بها ولها على الأرض،
 وليصبح مسؤولا عن صنع حياته وحياة الجماعة الإنسانية التي
 يعيش بين ظهرانيها. هذه الحياة التي هي في نهاية المطاف
 مجرد حلقة من حلقات التاريخ الإنساني، الذي أصبح الإنسان
 مسؤولا عنه بالتبعية كل هذه المفاهيم أصبحت واضحة في
 عقل المسلم، بل أنه وسعها وصاغها على شكل مسائل فلسفية أو
 كلامية خاض فيها علماء الكلام من الأشاعرة والمعتزلة، بعد
 قيام الدولة العباسية، وبعد أن انتقل الجو الأدبي والفلسفي، كلية
 إلى البصرة ثم إلى بغداد.

ولذلك لم يكن غريبا أن يبدأ تكوين السيرة النبوية في بغداد
 فقد طلب الخليفة أبو جعفر المنصور من محمد بن اسحق أن
 يؤلف لابنه المهدي (الخليفة فيما بعد) كتابا يذكر فيه كتاب البشر
 منذ خلق الله آدم عليه السلام، إلى يومنا هذا، فذهب فصنف هذا
 الكتاب، فقال الخليفة: لقد طولته يا ابن اسحق أذهب فاختصره،
 فذهب فاختصره، فهو هذا الكتاب المختصر (يعلى سيرة ابن
 هشام التي وصلتنا) وألقى الكتاب الكبير في خزنة أمير
 المؤمنين. لقد كان مقصد الخليفة المنصور أن يضع بين يدي ابنه

المهدى الذى سيرث الخلافة من بعده، كتابا يلم بأحداث الماضى ليكون ذخيرة تعينه على صنع الحاضر والمستقبل. وكان التاريخ فى وعى الخليفة العباسى، هو أساسا تاريخ العرب فى ماضيهم وحاضرهم، وكان الإسلام، حيث تقع أخبار النبی صلى الله عليه وسلم وحكمه وتعليماته وحروبه فى بؤرة هذا التاريخ المطلوب تكوينه، فمن أجل نشر دعوة الإسلام، تمت الفتوحات ونشأت الدولة وتمت وكبرت مسؤولياتها ومسؤوليات المسؤولين عنها من الخلفاء.. لقد أصبح التاريخ العربى فى وعى المسلمين قيمة حضارية تؤكد وجود الذات الحاضرة، وتساعد على دحض الفكرة السائدة عند العرب قبل الإسلام والتي ترى الحياة مجرد مراحل عبور، معلومة البداية والنهاية. تبدأ بالميلاد وتنتهى بالموت. لم تعد الحياة كما عبر عنها الشاعر الجاهلى عمرو بن كلثوم، فى معلقته الشهيرة:

وكان قد شربت ببعلبك وأخرى قد شربت بقاصرينا
وإن سوف تتركنا المدايا مقدرة لنا ومقدرينا
بل أصبحت الحياة الإنسانية موصولة بالله، وخاضعة لمعيار الحق والخير الجماعى، أصبحت سلسلة متصلة الحلقات تبدأ بالماضى لتستمر فى الحاضر. وأصبح للإنسان وجود تاريخى.



وهناك تناقض واضح بين قصتي خلق الإنسان الأول اللتين وردتا فى الاصحاحين، الأول والثانى من سفر التكوين فى العهد القديم من الكتاب المقدس (التوراة).. ففي الاصحاح الأول ورد

أن الله خلق حتى اليوم السادس من بدء الخليقة كل الكائنات الحية التي تعيش على الأرض أو في الماء أو في الهواء ثم خلق أخيراً آدم وحواء كليهما، على صورته. أي أن الإنسان قد خلق بعد أن خلقت الكائنات كلها، وأن الإنسان منذ البداية قد انقسم إلى ذكر وأنثى، وأن كلا منهما كان يعكس بنفس الدرجة عظمة الأصل الإلهي.

أما الإصحاح الثاني من سفر التكوين فتد في قصة مختلفة، إذ نقرأ فيه أن الله خلق الإنسان أولاً، ثم خلق صنوف الحيوانات الدنيا بعد ذلك، أما حواء فقد خلقها بعد ذلك، وشكلها من ضلع النزع من آدم أثناء نومه. ومن هنا يبدو أن النظام الذي خلقت الكائنات على أساسه معكوس في القصتين، ففي القصة الأولى تبدأ بخلق الكائنات الحية الأدنى من الإنسان وتنتهي بخلق آدم وحواء معاً، وفي الثانية يخلق آدم وحده حيث يقول الإصحاح الثاني: "وجعل الرب الإله آدم تراباً من الأرض، ونفخ في أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفساً حية". ثم أراد الله أن يخفف من وحشة آدم في الجنة، فخلق الطيور والحيوانات، التي نظر إليها آدم وسماها بأسمائها، ولكنه كان لا يزال غير راضٍ عن هذه الرفقة، فخلق له الله حواء من جزء من جسمه لتكون زوجاً له. ويقسم عالم الأنثروبولوجيا الشهير جيمس فريزر في كتابه "الفلكلور في العهد القديم" التناقض الواضح بين قصتي الخلق، بأن كتاب التوراة قد استمدهما من مصدرين مختلفين، ثم جمعوا بين القصتين في كتاب واحد (سفر التكوين) دون أن يوائموا بينهما. وتبدو القصة الأولى مستمدة من الأصل الكهنوتي الذي

كتبه رجال الكهنوت اليهودى أثناء السبى البابلى، أو بعده، بينما تبدو قصة الخلق الثانية مستمدة من الأصل اليهودى الذى كتب قبل السبى البابلى بمئات السنين، وتحمل القصة الثانية قدرا من التشاؤم، كما تحمل نظرة دونية للمرأة، إذ تعزو إليها "سحنة الجنس البشرى وأحزانه. التى سببه سلوكها المعتصم بالحماسة الساذجة. وشهواتها التى أطلقت لها العنان". وفكرة عودة أصل الجنس البشرى إلى التراب، قديمة عند العبرانيين، إذ نجد أن كلمة "أدم" فى اللغة العبرية، وهى الصيغة المؤنثة لكلمة آدم، معناها الأرض، وفى الأدب البابلى القديم أيضا كان الناس يعتقدون بخلق الإنسان من طين، وكذلك الفراعنة والاعريق. وقد انتقلت هذه الفكرة إلى تلك الشعوب عن طريق اسلافهم البابليين. وتصور القصة التوراتية طرد آدم وحواء من الجنة، وكأنها خوفا من مناقشتها له فى معرفة الخير والشر، وقبل أن يكتبها أيضا صفة الخلود، إذا ما أكل من شجرة الحياة المحرمة عليهما. "وقال الرب الإله: هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر. والأن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا، ويأكل ويحيا إلى الأبد. فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل على الأرض التى أخذ منها".

وتقارن الدكتور نبيلة إبراهيم فى مقدمتها لترجمة لكتاب فريزر المشار إليه سابقا، بين ما روتته التوراة وما رواه القرآن، لإلقاء مزيد من الضوء على مدى ما أعترض القصص النبئى فى التوراة من تحريف. قال تعالى فى سورة البقرة: "وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة، وكلا منها رغدا حيث شئتما، ولا

تقربا هذه الشجرة فتكونا من الهالكين، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين"، كما قال الله تعالى في سورة طه: "فوسوس إليه الشيطان، قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فأكلا منها فبنت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، وعصى آدم ربه فغوى".

تقدم الآيات القرآنية الخطوط العريضة لقصة آدم وحواء منذ أن خلقا في الجنة إلى أن طردا منها، ليعيشا هما وتسليهما على الأرض حياة غير حياة التحريم، أو هي بتعبير آخر اختبار للطبيعة الجنس البشري، تلك الطبيعة التي لازمت الإنسان منذ بدء الخليقة حتى اليوم، وهي التي تتمثل في ضعفه أمام قوة الإغراء المادي. ولما كان التجريد من أخص خصائص القرآن الكريم، لذلك فإن قصة آدم وحواء في القرآن تختلف اختلافا جوهريا عن قصتهما في سفر التكوين من العهد القديم (التوراة) ليس في طريقة السرد القصصي وحدها، وإنما أيضا في الهدف والغاية من إيراد القصة.

فحسب القرآن الكريم كانت عبارة آدم وحواء للأرض مقدرة قبلا، كما كان عصيان آدم مقدرا من قبل وتصبح القصة الدينية، عندئذ، تأكيدا للطبيعة الإنسانية، وجوانب ضعف الإنسان التي جعلته هدفا لإغراء الشيطان.

وقد أراد بعض مفسري القرآن الكريم إضفاء المزيد من التفصيلات على القصة القرآنية التجريدية الطابع، فتركوا لخيالهم القصصي مستعينين بالموروث القصصي لأهل الكتاب مما

عرف بـ "الإسرائيليات" تصوير كيفية خلق الخالق لأدم،
والطريقة التي أحضر بها طين الأرض وطبيعة الشجرة التي
نهاه الله عن الأكل منها، وإن كان هذا لم يمنع وجود مفسرين
آخرين، وفقوا موقفاً نقدياً أمام هذه الروايات والتفصيلات
المضافة، مثلما ذكر ابن جرير الطبري أمام آراء المفسرين الذين
وصفوا للشجرة المحرمة، فقال: "ولا علم عندنا بأى شجرة كانت
على التحيين. لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن أو
في السنة الصحيحة. فإلى يأتي ذلك من لى، وقد قيل كانت
شجرة البر، وقيل كانت شجرة العنب، وقيل كانت شجرة التين،
وجائز أن تكون واحدة منها".



(٩)

التصورات العربية القديمة
لقصة الخلق

كان الشعر فيما قبل الإسلام هو الوسيلة الأساسية للتعبير عن المعرفة، وعن الذات العربية الجمعية في المرحلة الشفاهية، وقد كانت كلمة "شعر" تعني أيضا "المعرفة والذراية".. وكانت الجماعة العربية تعتقد أن الشعر ينبع من المنطقة التي تفصل بين البشر وبين القوى الغيبية غير المدركة! ورغم أهمية الشعر في حياة العرب قبل الإسلام، فإنهم بالتأكيد لم يكونوا يتحدثون شعرا طول الوقت، فقد كانوا في أحوالهم المعيشية يتحدثون نثرا. لكن النثر في التراث الشفاهي لعرب ما قبل الإسلام قد ضاع بما حواه من أخبار وقصص وأغصان، وما سجله من أحداث وحروب قبلية وعادات وتقاليد وشرائع، أهملها جامعو التراث في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، مركزين صلبهم على تدوين الشعر الهندي الوثني باعتباره أرشيفا لحياة عرب ما قبل الإسلام، وحتى ذلك الشعر، كان أغلبه قد هلك مع من هلك من أصحابه القدامى، قبل مائتي عام من تدوينه، وهو الأمر الذي أشار إليه واحد من أهم المراجع عن تلك المرحلة، وأعطى كتاب "الأصنام" لهشام الكلبى، الذي يقرر أنه لم يحفظ من أشعار العرب غير شعر المرحلة القريبة من الإسلام.

وقد كان إنراك عرب شمال شبه الجزيرة لحدث الولادة وانعكاساته في معتقداتهم يوازي إنراك سكان المناطق الحضارية

لحدث خلق الله للعالم، وهو الأمر الذي تعبر عنه مصطلحات
القراءة: - الرحم ذو الرحم = الأخ من نفس الرحم صلات
الرحم الحبل.

ويبرز في الشعر البدوي القديم "الجد الأول للقبيلة" كرمز لبداية
الوجود البيولوجي والاجتماعي بشكل عام. ولا يبدو واضحا
في ذلك الشعر وجود آخر سابق لهذا الوجود، ولا أساطير أو
بقايا أساطير عن نشأة الكون، أو عن صورة الإنسان الأول قبل
ما جاء في التوراة والإنجيل عن آدم أبي البشر.

وأقدم البقايا الأسطورية العربية التي تصور نشأة البشر تعود
إلى عصر الوحدة اللغوية والثقافية القديمة، وهو العصر الذي
أصبحت فيه لغة موجودة مفهومة لكل العرب.. والنشأة البشرية
في بقايا تلك الأساطير تعود إلى ثلاثة أشكال أساسية: الأرض
بما عليها من جبال ووديان وصخور وجنادل وكثير من القبائل
القديمة تنسب نفسها لهذا الأصل: بنو صخر بنو جندل إلخ..
أما شكل النشأة الثاني فينسب إلى النبات: بنو شجرة بنو
حنظلة إلخ.. وينتمي الشكل الثالث إلى الحيوان والطير: بنو أسد
بنو نمر إلخ.

ونؤدى الكلمات: "صخرة حجر غيرة شجرة نمر،
وغيرها من ألقاب الانتماءات وظيفية أسماء الماتحين الأوائل لهذه
التسميات، ومنلولها الحقيقي في السياق العام للتصورات
الأسطورية عن أصل الإنسان التي انتشرت في آسيا الغربية
وشبه جزيرة العرب. وتعود جذورها الدلالية إلى الأساطير
القديمة، التي تضمنت روايات عن ظهور الناس الأولين. وهكذا

توجد علاقة محددة بين الألقاب الانتمائية: بنو صخر بنو حجر، وبين عبادة الأحجار التي انتشرت في شبه الجزيرة العربية في مرحلة ما قبل الإسلام، متمازجة مع عبادة الأجداد لدى قبائل عديدة. ويشير إلى ذلك ما يسوقه هشام الكلبى (نهاية القرن الثامن بداية التاسع) في روايته عن أن العقائد الوثنية القديمة في شبه جزيرة العرب نشأت من خلال إجلال الأجداد المؤسسين للنسل، الذين جعلوا الأحجار رمزا لهم. وهذه الأحجار التي ترمز إلى الأجداد قد تحولت إلى إلهة وموضوعات للعبادة () وقد أظهر علم الأساطير المقارن أن مصدر إجلال وتقديس الأحجار والصخور يعود إلى التصور القديم جدا عن نشوء الإنسان الأول من الحجر. فقد تجلّى هذا، التصور على الخصوص، في الأساطير الخيئية وأساطير اليونانيين القدماء. وقد حفظت أصداء الأساطير عن نشوء الإنسان من الصخر والحجر في أسفار الأنبياء في الكتاب المقدس أيضا. وهذا التصور يعود كما يبدو إلى أقدم الطبقات من أساطير النشوء الإنساني ونشوء القبيلة عند الساميين الرحل الرعاة الذين سكنوا الهضاب والروابي الصخرية. ويشير القرآن الكريم والكتاب المقدس إلى خلق آدم من تراب، والكلمة التي تشير إلى التراب في الكتاب المقدس هي كلمة "عفر" التي تعنى الغبار الأرضي، وهي في اللغة الأكادية السامية هي الأخرى بنفس المعنى دون أن ترتبط بخلق الإنسان، وهي بنفس المعنى في الآرامية والحبشية. [وكلها فروع من المجموعة العروبية السامية] الأمر الذي يشير إلى معرفة عرب ما قبل الإسلام

للتصور القائل بخلق الإنسان من التراب، والذي عرفته التوراة والإنجيل. وقد كان العرب المجاورين لببزنطة المسيحية يسمون المسيحيين بـ "بنو عبدة" مثلما ورد في ملحقة طرفة بن العبد لأن المسيحيين ينتمون إلى أدم أبي البشر، بينما ينسب البدو سكان المضارب المشرعة إلى إنسان آخر. ويفسر بعض الباحثين الاختلاف بين الأسطورة التي تعود بخلق الإنسان الأول من الطين، وتلك التي تعود بخلقه إلى غبار الأرض، إلى كونهما تعبيران عن حالتين من التقاليد الأسطورية "هاتان الروايتان متشابهتان من حيث المضمون، ولكنها يختلفان في مظهر المادة التي استخدمتها الإلهة لخلق الإنسان: فهي طين في الحالة الأولى، وهي غبار الأرض الرملية في الحالة الثانية، وهذه الاختلافات في جوهر المادة الأولى للخلق إنما تعود، كما يبدو، إلى الخلاف التربة في أماكن سكن مدعى هاتين الروايتين. وبالفعل، ففي السهول المليئة بالأنهار في بلاد ما بين النهرين، حيث ظهرت أسطورة خلق الإنسان من الطين، نجد أن الطين هو ما تتميز به التربة هناك، وهو المادة التي يستخدمها البناؤون والفخاريون. وفي نفس الوقت نجد أن معتققي هذه الأسطورة من اليهود قد اعتادوا على التربة الصلدة في البراري والإنجاد التي يغطيها الغبار الرملية الجاف = الغبار العبرة التراب. وهذه المادة عادت مادة لخلق الناس من خلال التعديل السومري الأكادي للموروث الملحمي الوارد في رواية الأسفار المقدسة، ومن ثم في الآداب الدينية، اليهودية والمسيحية، وفي الفلكلور". وهناك أشارتان في شعر ما قبل الإسلام إلى الانتماء لـ "عرق

للثرى". الإشارة الأولى فى شعر امرئ القيس، حيث يقول:
إلى عرق للثرى وشجت عروقى.. وهذا الموت يسلبنى شبابى
ونفسى سوف يسلبنى وجرمى.. فيلحقنى وشيكا بالتسراب
والإشارة الثانية فى شعر الجاهلى متمم بن نويرة، يقول:
فعددت أبائى إلى عرق للثرى.. فدعوتهم فطعت أن لم يسمعوا
وتخلفى عبارة "عرق للثرى" طويلا لتظهر ثانية فى شعر
الأموى الفرزدق فى قوله:

أنا ابن الجبال الشم فى عدد الحصى وعرق للثرى عرقى فمن
ذا بحاسبه!

وقد فسّر شراح الشعر الماثرتين بالإسرائيليات "عرق للثرى"
كإشارة استعارية عن النبي إسماعيل جد العرب، بينما فهمها
آخرون كرمز لآدم أبى البشر جميعا.
على أن دلالة الاستعارة "عرق للثرى" أوسع من هذا المعنى،
والأغلب أن الاستعارة ذاتها ظهرت على أساس تداعيات أخرى،
لا يدخل فيها، بشكل خاص، دافع الخلق المتعمد للإنسان، الذى
هو أساس فى الروايات السومرية والأكادية وروايات الكتاب
المقدس.

وأهم هذه التداعيات كانت متعلقة بمعنى كلمة "الثرى" التى
تعنى: التربة الرطبة المبتلة، التربة ما تحت الطبقة الأرضية
المروية بالمياه الجوفية، عور الأرض، التربة الباطنية وهى
تعود إلى أقدم التصورات عن التربة التى تخصب بالرطوبة،
باعتبارها بيئة تولد كل شئ وأم أصلية لكل شئ حتى بما فيه ذلك
الإنسان نفسه وهو المعنى الذى أشار إليه الشاعر الجاهلى أمية

بن أبي الصلت المتوفى حوالي ٦٣٠ ميلادية في شعراء:
والأرض معقلنا، وكانت أمنا فيها مقابرنا وفيها نولد
وقوله:

منها خلقنا، وكانت أمنا خلقت ونحن أبناؤها لو أننا شكر
ثم جاءت قصة الخلق في القرآن الكريم لتنتهي التصورات
القبلية البدائية عن أصل الإنسان والمعتمد على الأساطير
المحفوظة في الذاكرة في شكل منمنمات لا نهاية لها، ليتحول
بالوعي العربي إلى الزمن التاريخي الذي يوحد ماضى الجنس
البشري، ووحدة الله خالق البشر والحياة، محدثا تغيرا جذريا في
تكوين تاريخ الإنسانية.



[الافتباسات من تطور الوعي التاريخي عند العرب بقلم
عرياز انيفتش. في دراسات في تاريخ الثقافة العربية، القرون
١٥/٥، دار التقدم موسكو].

(١٠)

الخيال الشعبي وقصص الأتبياء

شغل الوجدان الشعبي العربي بقصص الأنبياء، ولم تشبع روايات المؤرخين والإخباريين حاجات هذا الوجدان الروحية، فراح يضيف من تصورات وموروثاته إلى هذه الروايات والقصص التي حفظتها الكتب التاريخية والدينية، متأثراً بالسيرة النبوية، فقد بدأت السيرة كما نعرف بقصص إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام، كما بدأت بعض كتب التاريخ كالطبري بقصة أبي البشر آدم وصولاً إلى النبي محمد عليهما السلام، الأمر الذي دفع الوجدان الجمعي إلى الاهتمام بقصص الأنبياء وخاصة أولئك الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم.

ولا تزال المكتبات الشعبية في بعض الدول العربية، تعيد طبع هذه القصص في كتيبات صغيرة ورخيصة الثمن، لتباع في أسواق القرى والأحياء الشعبية، ومن هذه القصص قصة سيدنا إبراهيم^١ وفي هذه القصة كما في غيرها من قصص الأنبياء يستلهم المؤلف الشعبي السيرة النبوية والقرآن الكريم، مستفيداً بهما في البناء الفني والسردي القصصي لسيرة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام فهو يورد بعض تفاصيل الحياة الخاصة لسيدنا إبراهيم كزواجه، وأسفاره، وعلاقته بأبنائه، ليربط بينها وبين رسالته الدينية، وليخلق تكاملاً في القصة يصل بدايتها بنهايتها كما يستغل القاص الشعبي المجهول موضوع "الإسراء" المرتبط

بالمسيرة النبوية، في سرد بعض أحداث قصة إبراهيم، حيث
 تحكى المسيرة النبوية نقلاً عن ابن اسحق أن النبي إبراهيم عندما
 أراد زيارة هاجر زوجته وابنه إسماعيل، في مكة، حمله البراق
 من الشام إليهما "فيقل بمكة ويروح من مكة فبييت عند أهله في
 الشام".. وتورد مسيرة ابن هشام حديثاً مرفوعاً إلى السيدة عائشة
 رضى الله عنها، تقول فيه: "كان الرسول صلى الله عليه وسلم
 كثيراً ما اسمعه يقول: أن الله لم يقبض نبياً حتى يخبره".. ويستفيد
 مؤلف قصة إبراهيم الشعبية بهذا الحديث، فيدير حواراً بين النبي
 إبراهيم وملك الموت الذي جاءه متكرراً، والذي لم يقبض روحه
 إلا بعد أن طلب منه إبراهيم ذلك. كما يربط المؤلف الشعبي
 للقصة بين ما ورد في القرآن الكريم وبين سرد أحداثها، فهي
 تصف النبي إبراهيم بأنه النبي الذي تجرى السنة الخلق كلهم
 بتصديقه وتقضيله وتجبيله في كل أمة، مستوحية الآية القرآنية
 التي يدعو فيها إبراهيم ربه بأن يجعل له لسان صدق في
 الآخرين.. وهو النبي إبراهيم الميملى بأنواع البلا، والمشهود
 له بالوفاء، استلهاما لقوله تعالى: "وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات
 فاتمهن" وقوله تعالى: "وإبراهيم الذي وفى" وتصفه القصة بـ
 "القانت" وبـ "لول من أقام المناسك" وأول من ضحى، وأول من
 ألقى في النار، وأول من أحيا الله له الموتى، وأول من هاجر لله،
 كما تصفه القصة الشعبية بـ "الحليم، المنيب، والأواب" وهي
 كلها صفات مستمدة من الآيات القرآنية الكريمة: "إن إبراهيم كان
 أمة قانتا لله حنيفاً ولم يك من المشركين" "وإنا مناسكنا" ورب
 لنا كيف تحيي الموتى قال لو لم تؤمن، قال بلى ولكن ليطعنن

قلبي" وقوله تعالى: "إن إبراهيم لأواه حليم" وقد أضاف مؤلف السيرة الإبراهيمية المجهول إلى ما استمده من السيرة النبوية والقرآن الكريم بعض روايات الخيال الشعبي، ليضع من هذا كله إطاراً قصصياً متكاملًا، يسرد من خلاله قصة سيدنا إبراهيم، بما يلتقي ومعتقدات جمهوره، وأدوافهم الفنية، مستخدماً العديد من العناصر الفنية في تجسيد الأحداث ورسم صور الشخصيات، كما يفعل أي قاص محترف، فهو يستعين، مرات بالأحداث التاريخية التي وردت في كتب المؤرخين وكتاب السيرة القدامى، ويؤكد بها بالآيات القرآنية التي تشير إلى قصة إبراهيم وهو يلجأ إلى التعليل الخيالي المستند على الموروث الشعبي العربي والسامى، في شرح إشارات القرآن الكريم القصصية، فعندما يقول القرآن: "وفديناه بذبح عظيم" يسر القاص وصف عظيم، بأنه كان كبشاً يرعى في الجنة أربعين خريفاً، وهو الكبش الذي قربّه هابيل بن آدم عليهما السلام إلى الله، وقتله أخوه قابيل من أجله، ولذلك سمي عظيماً.. ثم يحلل القاص الشعبي يومى "التروية وعرفة" في شعائر الحج بقوله "ثم رأى إبراهيم عليه السلام في منامه قاتلاً يقول له: يا إبراهيم أن الله بأمرك بذبح ولدك، وكان ليلة التروية. فلما أصبح تروى في نفسه، أمن الله هذا المنام أم من الشيطان؟ فمن ثم سمي بيوم التروية. فلما أمسى رأى المنام ثانية، فلما أصبح عرف أن ذلك من الله، فمن ثم سمي بيوم عرفة" ثم يصعد القاص الشعبي الموقف الذي يتهاى فيه إبراهيم لذبح ابنه إسماعيل، حيث يطلب إسماعيل من أبيه أن يكبه على وجهه (أي أن يجعل وجهه للأرض) حتى لا ينظر إلى وجهه، وهو يذبحه هيرحه، وتحول رقة الأب على ابنه بينه وبين تنفيذ أمر الله.

وتنتهى قصة سيدنا إبراهيم الشعبية بموته، ويرسم مؤلفها لقاء سيدنا إبراهيم مع ملك الموت، هكذا: لما أراد الله سبحانه وتعالى قبض روح إبراهيم عليه السلام، أرسل ملكا فى صفة شيخ هرم.. فبينما هو بطعم للناس، إذ هو شيخ كبير يمشى فى الخلوة، فيعرض إليه بحمار فركبه.. فلما راه أثناء قدم إليه الطعام، فجعل الشيخ يأخذ التلعة يريد أن يدخلها فاه، فدخلها مرة فى عينه ومرة فى أنفه () وكان إبراهيم عليه السلام قد سال الموت. فقال إبراهيم للشيخ حين رأى حاله: ما يالك يا شيخ تصنع فوجد عمره يزيد على عمر إبراهيم بستين فقال له إبراهيم: إنما بينى وبينك ستان، فإذا بلغت عمرك صرت مثلك، اللهم لقبضنى قبل ذلك اليوم، فقام الشيخ فقبض روحه عليه السلام" ولا يخفى ما فى هذه الفقرة من خيرة الإنسانية، نكره أن يوصلها كبر السن إلى تحلل الأعضاء، ووهن الجسم وفقدانه لوظائفه.

كما تشير قصة سيدنا إبراهيم الشعبية فى نهايتها إلى اتباعه للشرعية الإسلامية، فنقول: "إن أول من صلى صلاة الصبح هو آدم عليه السلام حين اهبط من الجنة إلى الأرض ودخل الليل. ولم يكن يعرف الليل قبل ذلك، فخاف خوفا شديدا من الظلمة، فلما انشق الفجر صلى ركعتين شكرا لله تعالى، الركعة الأولى للنجاة من ظلمة الليل، والثانية شكرا لرجوع ضوء النهار، فكان ذلك سببا لكونهما ركعتين وفرضت عليهما. وأول من صلى الظهر إبراهيم عليه السلام حين أمر بذبح ولده. صلى أربعاً: الأولى شكرا لذهاب غم الولد، والثانية شكرا لنزول الغدا، والثالثة شكرا لرضاء الله تعالى حين مضى الذبح، وكان ذلك منه تطوعا، وقد فرض عليهما".

موسى وأنبياء التوراة

ظلت اليهودية الدينية السماوية الأولى لأكثر من ألف عام، لأن أنبياء بني إسرائيل الذين أتوا من بعد موسى عليه السلام حرصوا على تقويم الشريعة الموسوية مما كانت تتعرض له من تحريف، ويصف ابن الأثير في كتابه "الكامل" هذه العملية بتجديد التوراة، وصورة موسى ككُتبي تجعله في مستوى متفرد عن الأنبياء الآخرين من بني إسرائيل، ويفسر علماء التاريخ القديم اسم موسى بمعنى "المولود" ولكن رواة التراث العربي يفسرونه على أنه يعني: "ماء وشجر" إشارة إلى المكان الذي عثر عليه فيه وهو طفل رضيع، على النيل، وترسم الكتب المقدسة صورة موسى الشاب، بأنه قوى قوة عضلية فائقة مكنته من قتل رجل بضربة واحدة، كما أنه استطاع أن يرفع وحده الصخرة الهائلة التي كانت موضوعة على فوهة البئر لكي تسقى أبنا النبي

شعيب إلهما، الأمر الذي لفت نظر البنيتين إلى قوته ومروءته، كما دفع النبي شعيب إلى إهدائه عصاته متأكدا من قدرته على حملها، وكان شعيب لا يستطيع حملها.. ويرسم ابن الأثير، بما يورده من أخبار، صورة النبي موسى كما تصوروا أصحاب التراث العربي ورواة سير الأولين، فهو ذو مروءة وخلق عظيم، فعندما دعه ابنة شعيب للقاء أبيها، وأجاب دعوتها، جعلها تسير خلفه لا أمامه، قائلا لها: "أنا أهل بيت لا ننظر في أعقاب النساء" وعندما وصل بيت شعيب، وقدم له الطعام، رفض أن يأكل، قائلا لصاحب البيت: "أنا من أهل بيت لا نأخذ على اليسير من عمل الآخرة، الدنيا بأسرها" ثم هو يستجيب للطعام احتراما لعادات شعيب وأهله في إطعام الضيف عندما عرف ذلك.

وعلى عادة الأخباريين القدامى يورد ابن الأثير أخبارا أخرى ترسم ملامح تختلف قليلا عن الملامح السابقة التي كان يتحلى بها النبي موسى.

أما عن نبوته فتتميز بالتقريب الذي حياه الله به، والذي يتمثل في توجيه كلام الله إليه مباشرة فضلا عن وساطة الملائكة. وهكذا فعندما لم يقدر زناد موسى رأى نارا من نور الله ممدة من السماء إلى شجرة عظيمة من العوسج، وعندما اقترب من الشجرة الخضراء المتوهجة باللهب، استأخرت عنه لفزع ورجع، وهنا تودى: أن يورك في النار ومن حولها يا موسى "أنا الله رب العالمين" وعندما هدأ وثاب إلى عقله تودى: "أخلق نعليك أنك بالوادي المقدس طوى" وعاد كلم الله موسى والناس لا

يقدرّون على النظر إليه، وفي ذلك قيل أنه بقي أربعين يوما ما
راه أحد فيها إلا مات، كما قيل ما رآه أحد إلا عصى، حتى أنه
جعل على وجهه حريزة أربعين يوما لم يكشفها لما تنفّش من
النور، أو أنه جعل على وجهه ورأسه برنسا أربعين يوما لئلا
يرى أحد وجهه".

ويتتبع الدكتور سعد زغلول عبد الحميد في دراسته: "الأنبياء
والمتنبئون قبل ظهور الإسلام" موضوعه التنفّع وإخفاء نور
الوجه في التراث العربي والإنساني، في "الأسود العنسي" متبنى
الذين كان معتما متخمرا أبدا، ولذلك لقب بذي الخمار (القناع)
ويقول عنه ابن الأثير أنه كان مشعبذا يرى قومه الأعاجيب..
كما كان الثائر الخرساني هاشم المروى (١٥٩ - ١٦١هـ) الذي
ثار على الخليفة المهدي العباسي في بلاد ما وراء النهرين،
والذي كان يؤمن بالتناسخ والحلول، وكان يزعم أن روح الله قد
تقمصته، وقد كان يلقب بـ "المقنع" لأنه كان يظهر باتباعه
مرتدبا قناعا منسوجا من الخيوط الذهبية لكي يبهر انظارهم،
وكان يخبرهم أنه ليس هذا القناع لكي لا يبهرهم بإشراق الأنوار
الإلهية التي لن يطبقوا النظر إليها مباشرة.. ولكن خصوم المقنع
من العباسيين فسروا ليسه للقناع بأنه كان أعور فكان يخفي
عاهته بالقناع الذهبي.. وكانت تهالته بعد يأسه من شدة حصار
عسكر الخليفة العباسي، أن التى بنفسه في النار واتبعه أهله
وخاصة مريديه، وماتوا جميعا محترقين، وهم على قناعة بأنهم
سيصعدون مع "المقنع" إلى السماء!

كما يقال أن أهل الإسكندرية ظلوا يضمون قطعاً من الحرير

الأسود على وجوههم لمدة سبعين سنة بعد أن بناها الإسكندر
الأكبر، خشية على أبصارهم من أن يخطفها يباس الرخام
الناصع!

■ ■ ■

المعجزات الموسوية

هناك معجزات عديدة ينسبها رواية التراث لموسى عليه السلام، منها ما ورد في التوراة والقرآن الكريم ومنها ما تناقله رواية الأخبار والقصص ضمن ما تناقلوه من أخبار الأولين مثل النار التي رآها موسى تتبعث من شجرة العوسج الخضراء، وكف مطر الطوفان، وكشف الجراد، والقمل الذي أهلك الزرع، وكف الدم الذي تحولت إليه مياه الفراعنة طيلة سبعة أيام، وممسخ أموالهم حجارة.. إلخ. وقد كان إنخال موسى يده في جيبه، وإخراجها بيضاء من غير سوء لها نور في بياض الثلج، وهي الكرامة التي وردت في القرآن، كما كانت عصاه التي ورد ذكرها في القرآن أيضاً، ذات كرامات عديدة. ويصف ابن كثير عصا موسى بأنها كانت ذات شعبتين وفي رأسها محجن، ولم تكن وظيفتها بالنسبة له مجرد أن يتوكأ عليها

ويهبش بها على غنمه، ويحمل عليها زاده وماءه.. بل كانت ترضى له في الليلة الظلماء، كما كان إذا انتهى فأكهة من القواكه، عرسها في الأرض، فتخرج لها أعصان تحمل الفاكهة المشتهاة .. وعندما التقى موسى بالسحرة، تحولت عصاه بأمر ربه، إلى حية تسعى، لفتت ما صنعه السحرة من أعاجيب، وهو الأمر الذي جعل رئيس السحرة يؤمن بما جاء به موسى ويخر ساجدا هو ومن معه من السحرة أجمعين.

وهي عصا موسى التي ضرب بها البحر الأحمر، فنفقته، فكان كل فرق كالطود العظيم، وفتح فيه اثني عشر طريقا لكل سبط من قومه طريق، ثم التطم للبحر على فرعون ومن معه فأغرقهم.. وهي العصا التي ضرب بها المحجن فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا لكل سبط عين.

كما ينسب إلى النبي موسى معجزة إحياء الموتى، وكانه المسيح عيسى بن مريم، ويقول ابن الأثير في روايته أن رجلا قتل رجلا وادعى أن غيره هو القاتل، وعندما احتكموا إلى موسى ليفصل في القضية أمر بذبح بقرة صفراء فاقع لونها، وأمر بضرب القاتل بلسانها، فبعث حيا وأرشد عن قاتله ثم مات، وقيل أن الهدف من ذبح البقرة للصفراء فاقعة الاصفرار، كان إحراق لحماها وجلدها، ليستخدم رماد الحريق في تطهير الماء الذي يستخدم الطهارة.

ويروي المؤرخون القدماء آخر كرامات النبي موسى، والخاصة بفتحه مدينة أريحا على الجبارين من الكنعانيين، فبعد أن قاتل خصومه طوال النهار، وقاربت الشمس الغروب، وخاف

موسى أن يتركهم الليل فينصرون عليه دعا ربه أن يحبس عليهم الشمس فحبسها عليهم حتى استأصلهم، ودخل موسى المدينة فأقام بها إلى ما شاء الله أن يقيم، ثم قبضه الله إليه، ولا يعلم أحد من الخلق مكان قبره، كما يقول ابن الأثير ويشير الدكتور سعد زغلول عبد الحميد في دراسته السابق الإشارة إليها، أن مؤلفي "أنشودة رولان" وهي الأنشودة الملحمية الشعبية الفرنسية والتي يرجع تاريخها إلى القرن الحادى عشر الميلاد، ترد بها قصة حبس الشمس، وإن كان مؤلفو الأنشودة يوظفونها كما هو معروف لتمجيد غزو الملك الفرنسى شارلمان لشمال الأندلس، فترة حكم المسلمين لها (١٦١ هـ - ٧٧٨) فيعد أن فاجأ المسلمون جيش شارلمان، في جبال البرانس، بعد عودته من مدينة سرقسطة الإسلامية، تمكن شارلمان من الثأر لمقتل الكونت رولان. ولما كانت الشمس قد قاربت على الغروب كما تقول الملحمة الشعبية الفرنسية، فإن شارلمان المقدس، الذى نشر المسيحية بين قبائل الجرمان البدائية الأوروبية، دعا الله أن يوقف الشمس فوق الأفق، فاستجاب الله لدعاء الملك القديس، فلم تغيب الشمس إلا بعد أن حقق النصر الكامل على خصومه المسلمين. "هذا ولا بأس أن تكون كرامة شارلمان القديس صدى لكرامة موسى التى تنسبها رواية أخرى إلى النبی يوشع، الذى خالف موسى بعد أن كان من أعوانه حيث يشير ابن الأثير وابن خلدون إلى أن يوشع هو الذى أدركه الممساء ليلة السبت فدعا الله أن يرد الشمس، فرد فهزم يوشع الجبارين ودخل مدينتهم، وجمع غنائمهم لياخذها كغريبان.

ومهما يكن من أمر فإن النظر إلى المعجزات والكرامات التي
تنسب إلى الأنبياء السابقين على دعوة خاتم الأنبياء والمرسلين،
تظل جزءا حيا من التراث الإنساني المقدس، الذي يرى في
النبوة تكريما إلهيا يرتبط بالوحي والإلهام الذي يهبه الله لمن
يختاره من البشر.



تعرضت بعض كتب التاريخ والتراث لما سمي في العهد القديم
(التوراة) بالوصايا العشر، فقد ذكر ابن الأثير ثلاثة منها فقط،
كما أورد ابن عدي في "المعتمد الفريد" بعض ما أوحى به إلى
موسى، ومنها قوله تعالى: "يا موسى أنت عبيد، وأنا الملك
الديان، لا تستذل الفقير، ولا تعبط الغني بشئ يسير، وكن عند
ذكرى خائفا".

وقد أورد اليعاقبي، في تاريخه، وهو سابق على ابن الأثير،
الوصايا كاملة وهي:

- أتى أنا الرب.. لا يكون لك إله آخر دولي.
- نفسي على مبعضي، ونعمي لمحبي.
- لا تحلف باسم الرب كذبا.
- أذكر يوم السبت لتطهره.. سبت الرب إلهك لا تعمل فيه شيئا
من الأفعال.
- أكرم أباك وأمك لتطول أيامك في الأرض.
- لا تقتل.

- لا تزن. ويضيف ابن الأثير في روايته (من زنى وليس له امرأة جلدناه مائة جلدة، وإن كانت له امرأة رجمناه حتى يموت).
 - لا تسرق، ويضيف ابن الأثير: (من سرق قطعناه).
 - لا تشهد على صاحبك شهادة كاذبة.
 - لا تنشئ بيت صاحبك، ولا زوجة صاحبك، ولا عبده ولا أمته ولا حماره ولا ثوره، ولا شيئا من مال صاحبك.
 "هنا ولا يأمن، من الإشارة إلى ما أوصى به النبي محمد صلى الله عليه وسلم لأمنته حيث ينسب إليه قوله "أوصاني ربي بتسع، وأنا أوصيكم بها: (أوصاني بالإخلاص في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وأن أعفو عن ظلمي، وأعطى من حرمي، وأصل من قطعني، وأن يكون صمتي فكرا، ونطقي ذكرا، ونظري عبرا) وهكذا تستمر التقاليد الحنفية الإبراهيمية حية بفضل سلسلة الأنبياء حتى موسى، قبل أن تعمل الدعوة المحمدية على تجديدها وإحيائها بشكل نهائي في الإسلام، فكما كان لموسى الكثير وصاياه العشر، كان لمحمد الأمين وصاياه التسع، كما أراد العرف الإسلامي".

(د. سعد زغلول عبد الحميد - مرجع سابق).

هذا ويرى كثير من الباحثين وعلماء الآثار الغربيين أن الديانة المصرية القديمة التي عرفت البعث والحساب، والعقوبة والثواب، طرحت - عبر التعاليم الأخناتونية - فكرة التوحيد، كما أن أرض مصر عرفت العديد من الأنبياء أصحاب الرسالات كإبراهيم الذي أقام بها زمنا وتزوج منها هاجر أم ولده إسماعيل

أبى العرب، ويوسف الذى ختم فى الإدارة المصرية ومات فيها
ودفن على ضفاف نيلها، وأصبح تابوته، فيما بعد، شعار بنى
"إسرائيل" فى حروبهم، ومن هنا يرى هؤلاء الباحثون أن الديانة
المصرية كان لها تأثيرها، فى تلك الرسائل التى تلقاها، كما
يرى البعض أن موسى يمكن أن يكون أميراً مصرياً!



هوامش ومراجع

- ١- التراث القصص في الأدب العربي الدكتور محمد رجب النجار.
- ٢- سيرة ابن هشام.
- ٣- الأنبياء والمتنبئون قبل ظهور الإسلام الدكتور سعد زعطل عبد الحميد. في: القرآن والسيرة النبوية عدد خاص من عالم الفكر- المجلد الثاني عشر ١٩٨٢.
- ٤- دراسات في العصر الجاهلي تأليف أحمد أبو الفضل المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية القاهرة ١٩٦٧.
- ٥- القرآن والتاريخ الدكتور عبد العزيز كامل في: القرآن والسيرة النبوية عدد خاص من عالم الفكر المجلد الثاني عشر ١٩٨٢.
- ٦- تطور الوعي التاريخي عند العرب، القرون ٦-٨ - بقلم غرياز نيفتش. في دراسات في تاريخ الثقافة العربية القرون ٥-١٥- دار التقدم موسكو ١٩٨٩].
- ٧- السيرة النبوية بين التاريخ والتراث الشعبي الدكتورة نبيلة إبراهيم. في: القرآن والسيرة النبوية عدد خاص من عالم الفكر المجلد الثاني ١٩٨٢.
- ٨- محمد.. سيرة حياة نبي تأليف كارين أرمسترونج

-
- ترجمة. د. فاطمة نصر والدكتور محمد عناني
مطبوعات مطور. القاهرة ١٩٩٨.
- ٩- عرائس المجالس تأليف أبي اسحق أحمد بن محمد بن
إبراهيم النيسابوري، المعروف بالثعلبي. القاهرة.
- ١٠- الفلكور في العهد القديم تأليف سير جيمس فريزر
ترجمة د. نبيلة إبراهيم القاهرة.
- هذه بعض المراجع إضافة إلى ما ورد من إشارات لمراجع
أخرى في متن المقالات، فمادة موضوع القصص الديني شديدة
الغنى في المكتبة العربية قديما وحديثا.

رقم الإيداع: ١٣٣٥٧/٢٠٠١

التراقيم الدولي: 0-7413-01-977



بين الحلم والواقع كانت مسافة زمنية ربما بدت لي طويلة أو مختلفة ولكن الأهم أن الحلم أصبح واقعاً ملموساً حيناً ينلث ويؤثر. وهكذا كانت مكتبة الأسرة تجربة مصرية سميعة بالجهد والمتابعة والتطوير. خرجت عن حدود المحلية وأصبحت باعتراف منظمة اليونسكو تجربة مصرية منفردة تستحق أن تنتشر في كل دول العالم القامي وأسعدني انتشار التجربة ومحاولة تعميقها في دول أخرى. كما أسعدني كل السعادة المثلثان الأسرة المصرية واحتضانها وانتشارها وتغلغلها على إصدارات مكتبة الأسرة طوال الأعوام السابقة.

ولقد أصبح هذا المشروع كياناً ثقافياً له مضمونه وشكله وهذاه التميز. ورغم اهتماماتي الوطنية الشجوة في مجالات كثيرة أخرى إلا أنني اعتبر مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة من الأبن البكر. ونجاح هذا المشروع كان مدياً قوياً لمزيد من المشروعات الأخرى.

ومما لفت قلقة التطوير تواصل إشعاعها بالعرفه الإنسانية. تعيد الروح للكتاب مصدراً أساسياً وحائلاً للثقافة. وتوالي «مكتبة الأسرة» إصداراتها للعام الثامن على التوالي. تصنيفاً وواقعاً من جوانب الإبداع الفكري والعلمي والأدبي وتدرج على مدى الأيام والسنوات زائداً ثقافياً لأهلى وعشيري ومواطني أهل مصر المحروسة مصر الحضارة والثقافة والتاريخ.



مكتبة الأسرة 2001
مهرجان القراءة للجميع

سوزان مبارك

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٥٠
قرشاً